

رسالة التوحيد

محمد نصير الما دلي

DATE DUE

FEB 15 2007

NOV 30 2006

FEB 18 2014

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.



﴿ فهرس رسالة التوحيد ﴾

صفحة		صفحة	
١٧	علم التوحيد . غايته	٥	مقدمة الناشر
١٨	أقسام المعلوم	٢	سبب تأليف الرسالة
١٩	حكم المستحيل	٣	مكاتها من كتب التوحيد
٢١	احكام الممكن	٤	مقدمات - تعريف هذا العلم
٢٢	سبب الوجود والعلّة	٥	« تاريخ علم العقائد ومنهج القرآن فيه »
٢٤	الممكن يقتضي وجود الواجب	٧	آيات الصفات المتشابهات
٢٥	القدم ونفي التركيب	٨	مبدأ ظهور البدع
٢٩	الحياة ٢٧ . العلم	٩	اقسام المسلمين الى ٣ فرق
٣٢	الارادة والقدرة	١٠	مبدأ الاشتغال بعلم العقائد
٣٣	الاختيار	١١	المعتزلة . ظهورهم وشأنهم
٣٤	الوحدة	١٢	الزندقة . ظهورها من الفرس
٣٥	الصفات السمعية	١٢	فتنة القول بخلق القرآن
٤١-٣٧	كلام في الصفات اجمالاً	١٣	الباطنية
٤٢	أفعال الله جل شأنه	١٣	الاشعري ومذهبه
٤٣	المصلحة والحكمة في أفعاله	١٤	مذاهب الفلسفة في الاسلام
١٢٠ و ٤٧	أفعال العباد وكسبهم	١٦	مزج كتب الكلام بالفلسفة
٤٩	الشرك . حقيقة	١٧ و ١٢٣	الاسلام والعقل
		١٢٥ و ١٤٦	

فهرس رسالة التوحيد

٦٩	نفس الانسان . بقاؤها	١١٨ و ٩٢ و ١٠	التوحيد . حقيقته
٧٠	مذاهب البشر في النفس والاخرة	٥٩ و ٦٢	الانسان ومميزاته
٧١	الالهام والشعور بالحياة الباقية	٧٤ و ٨٣	
٧٢	عجز البشر عن معرفة الآخرة	١٢٣ و ٥٢	التقليد والاسلام
٧٣	مرتبة نفوس الرسل	٥٢	حسن الافعال وقبحها
	المسلك الثاني في وجه الحاجة	٥٣	الجمال الحسي والمعنوي
٧٥	الى الرسل	٥٥	الحسن والقيح: والضار اللذيذ
٧٦ و ٧٩	المحبة والحاجة اليها	٥٧	النمل وطبائعه
٧٧	ارتقاء الانسان بالتعلم	٥٨	الحسن والقيح بعاقبته في الآخرة
٧٨ و ٨٢ و ٨٦	استعداد الناس	٥٩	حاجات الانسان ومخاوفه
٧٩	حب الكرامة في البشر	٥٩	الذاكرة والخيالة والمفكرة
٧٩	العدل نائب المحبة	٦٢	العقول . تفاوتها وحاجتها للنبوة
٨٠	العقلاء . عدم خضوع الجمهور لهم	٦٣	النبوة . تحديد هاللعقائد والجزاء
٨١	الشعور بالقوة الغيبية	٦٤	» » للاعمال
٨١ و ١٢٠	الوثنية والقوة الغيبية	٦٥	الرسالة العامة . وبعثة الرسل
٨٣	الاجتماع طبيعي للبشر	٦٦	صفات النبيين والمرسلين
٨٣	حاجة الفطرة الى النبوة	٦٧	المعجزة
٨٤	إمكان الوحي وتعريفه	٦٨	السحر ودليل النبوة
٨٥	الفرق بين الوحي والالهام	٦٩	حاجة البشر الى الرسالة

١٠٢	حال الامم في زمن البعثة	٨٥	الشاكون في الدين
١٢٥ و ١٠٣	الرؤساء. افسادهم للامم	٨٦	الدليل الفطري على الوحي
١٠٤	الامة العربية عند البعثة	٨٦	تفاوت الناس في العلم والعقل
١٠٥	مولد النبي وعناية الله به	٨٧	تمثل الملائكة للانبياء
١٠٦	نشأة النبي وحال قومه	٨٨	الاولياء دون الانبياء
١٠٧	معنى «ووجدك ضالاً فهدى»	٨٩	وقوع الوحي والرسالة
١٠٨	تنزيه النبي عن طلب الملك	٩٠	حال الانبياء المتواتر خبرهم
١٠٩	دعوة النبي وحالته	٩١	وظيفة الرسل
١١٢	ملخص الدليل على نبوته	٩٢	الحاجة الى الدين روحانية
١١٣	القرآن . تواتره وهدايته	٩٣	أصول الآداب والشرائع
١١٤	» احكامه وحكمه	٩٤	فائدة دعوة الرسل للآخرة
القرآن . العجز عن معارضته ١١٥		٩٥	الرسل للعوام والخواص
الاسلام وتعاليمه — التوحيد ١١٨		٩٥	علوم الدنيا ودعوة الرسل
الانبياء عباد الله كغيرهم ١١٩		٩٦	الدين وضلالة أهله
القوة الغيبية والوثنية ١٢٠		٩٧	تأثير كل من الفلسفة والدين
التوحيد يحمر العقل والارادة ١٢١		٩٨	دعوة الدين والآداب والسياسة
حث الاسلام على العمل		٩٩	النبوة في النوع كالعقل للشخص
واباحته للطيبات والزينة ١٢٢		١٠٠	المقابلة بين الدين والعقل
		١٠١	رسالة محمد (ص)

الاسلام والامر بالمعروف	١٣٩	الاسلام واستقلال العقل	١٢٥
» فرضه الزكاة والصدقة	١٤٠	والارادة	١٢٥
» انتشاره بسرعة لانظيرها	١٤١	دعوة الاسلام الى فهم الدين	١٢٦
» تألب الملل عليه ووظفوه بهم	١٤٢	أهل الكتاب قبل الاسلام	١٢٦
» معاملة فاتحيه للامم	١٤٣	انكار الاسلام التعادي في الاديان	١٢٧
» سبب دخول الامم فيه	١٤٤	اصول دين الله واحدة	١٢٨
» انتشر بالدعوة لا السيف	١٤٨	اختلاف فروع الاديان	١٢٨
» تأثيره وصدمة التار	١٤٩	ارتقاء الدين بارتقاء الاستعداد	١٢٩
» اصلاحه للامم	١٥١	اليهود والنصرانية	١٢٩ و ١٣٠
» والصليبيون	١٥٠	الاسلام . ارتقاؤه بالدين	١٣٢
» الاعتراض بأهله عليه	١٥٢	» . تساهله	١٣٣ و ١٤٧
الاسلام والمسلمون الآن	١٥٢	» . ابطاله امتياز الاجناس	١٣٤ و ١٤٦
التصديق بما جاء به النبي من خبر	١٥٦	» . عباداته وحكمها	١٣٤
الغيب	١٥٦	» . بيانه لسنن الله في الخلق	١٣٦
ما يكفي لصحة الايمان	١٥٧	» . والاسباب والمسببات في	١٣٨
تأويل المشكل ورؤية الباري	١٥٧	الافراد والامم	١٣٨
مسألة الكرامات	١٥٨	» . بيانه لاسباب هلاك الامم	١٣٨
خاتمة الرسالة	١٥٩		

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَاقِم وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ،
وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُبْدِينَ إِلَيْهِ وَأَنْقُوهُ
وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ
فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ * (سورة الرُّوم ٣٠ : ٣٠ - ٣٢)

إن الله جلت قدرته ، وبلغت حكمته ، قد برأ هذا الانسان ،
بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، أودع فيه شعوراً ببلذات
وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ،
انشأه مستعداً لا إدراك معلومات غير محصورة ، اذ خلقه ليحيا حياة غير
محدودة ، جعل مدارحياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على
استجلاء ما في الكون من النظام والابداع ، أنشأ افراده متفاوتين في
الاستعداد للعلوم والأعمال ، ليتيسر لمجموع النوع القيام بجميع العلوم
والاعمال ، فأدناهم الخدم والبنائون والزارعون ، وأعلام السياسة والحكماء
فالانبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالعقول والقلوب والارواح ، وأولئك

كالأرجل والأيدي والمعد والامعاء ، فمنهم من يقوم للنوع بأدنى ما يحتاج إليه ، ومنهم من يهديه الى أعلى ما يتشوف استعداداه إليه ، مع احسانه التصرف فيما هو قائم عليه ، وهذه الهداية هي هداية الدين الذي هو قوام الفطرة للانسان ، الناهض بها الى طلب الكمال في العلوم والاعمال ، سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدرج في الارتقاء ، كما هي السنة العامة في جميع شئون الاحياء ، حتى جاء خاتم النبيين والمرسلين بالاسلام ، الذي بلغ بالانسان مرتبة الاستقلال التام ، وبين كتابه انه دين الفطرة للناس ، من جميع الشعوب والاجناس ، الموافق لهم في كل مكان ، المنطبق على مصالحهم في كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمرابي الرحيم ، وللشعوب الراقية كالامام الحكيم ، كلما ساروا في العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلي في ميدان السبق ، ٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ،

لكن اكثر المسلمين قد خذلو هذا الدين ، وصاروا حجة عليه عند اكثر العالمين ، اذ زينت لهم التقاليد والعادات ، ان يجعلوه حجبا دون العلوم والفنون والصناعات ، وان يتفرقوا فيه مذاهب وشيعا ، وينقصوا منه سنا ويزيدوا عليه بدعا ، وان يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين اهل المذاهب من الاموات والاحياء ، وقد مرت القرون وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة الى الاسلام ، على الوجه الذي اشترطه علماء الكلام ، وهو ان يكون على وجه يحرك الى النظر ، ويدعو الى البحث

والتفكر ، حتى قام الاستاذ الامام ، الذي كان في هذا العصر حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في دار السلام ، فكتب (رسالة التوحيد) في بيان حقيقة هذا الدين ، فجاء مع التزام الشرط بما لم يأت بمثله أحد من أئمة المسلمين ،

لا اذ كر في بيان فضل هذه الرسالة ان مجلس ادارة الازهر قرر تدريسيها في الجامع الازهر رسميا ، ولا ان علماء الهند ترجموها بلغة الاوردو ليدرسوها في مدرسة عليكده الكلية وغيرها ، ولا ان علماء الاقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من مشور الثناء ومنظومه ما يزيد على حجمها اضعافا مضاعفة ، ولا ان بعض علماء النصارى قالوا عند ما قرءوها : لو كان ما في هذه الرسالة هو الاسلام لكنا اول من يدخل فيه ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذي نوؤ من فضله ، وعلو كعبه ، لا أشرح هنا شيئا من مثل هذا وانما أقول انه لا يقدر هذه الرسالة حق قدرها الا من كان عالما بمنتهى ما وصل اليه علم الكلام ، من الارتقاء في الاسلام ، وواقفا على ما كتبه فلاسفة أوربا في الانتقاد على الاديان ، مع ما كتبه في بيان مزاياها وفي علم النفس وعلم الاخلاق وعلم الاجتماع البشري

لم تدع الرسالة شبهة على الدين الا وكشفتها ، ولا عقدة من عقد المشكلات الا وحلتها ، ولكن الشبه تذكريها غالبا بطريق الایماء والتلويح ، دون الابانة والتصریح ، وذلك أدنى ان لا يشاك الضعيف ، ولا يشتغل القوي عن المقصد الشريف ، وقد أشار الى ذلك المصنف في قوله «راميا

الى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد «
كتب الاستاذ الامام هذه الرسالة في مدة قليلة وبادر الى طبعها فلما قرأها
في الجامع الازهر على الالوف من العلماء ونجباء الطلاب ظهر له فيها أغلاط
لغوية ومسائل تحتاج الى إيضاح وكلم جدير بالحذف فكان يكتب ما يراه
من التنقيح في النسخة التي يقرأ بها الدرس ويزيد ما يزيد في هامشها ،
وقد انتقد عليه الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمه الله) ذكره لمسألة خلق
القرآن لانها مخالفة لشرطه في التزام مذهب السلف فأمر بحذف ذلك منها
(راجع ص ٣٧ منها) وانتقد عليه حروفا أخرى فأقنعه في بعضها واقنع منه في
بعض . وقد جمع جميع ما صححه في جدول فكان ذلك في سبعين موضعا
أو أكثر . وبقي فيها كلمات نادرة قدسها المؤلف عنها مع تصحيحه لمثلها ،
فأبقيتها على أصلها ، ولم أزد فيها من عندي الا عدد السور والآيات
ولما كتب الي صديقي حموده بك عبده يأذن لي بإعادة طبع
الرسالة اعطاني الجدول فصححت هذه الطبعة معارضة عليه وعلى نسخة
المؤلف . وعلقت عليها هامش قليلة سمعت بعضها منه في الدرس ، ولولا
انه نهى عن شرحها ، ووضع الحواشي لها ، لجاز لي أن أكثر من هذه
الهوامش ، ولكن مارآه رحمه الله هو الصواب ، وما جاء به هو الحكمة
وفصل الخطاب ، فهذه الطبعة هي المعتمدة وعليها المعول ولا يستغني
عنها من طالع الطبعة الاولى فرحم الله الاستاذ الامام ، ونفع برسالته
الأنام ، آمين (محمد رشيد رضا الحسيني)

رسالة التوحيد

﴿ تأليف ﴾

الحادي

الإمام الأمام

الشيخ محمد بن عبد الله

(رضي الله عنه)

طبعها بأذن الورثة مصححاً إياها على نسخة المؤلف وجدول وضعه لتصحيحها
ومعلقاً عليها هوامش استفاد بعضها منه في الدرس

السيد محمد بن عبد الله

منشئ مجلته

وحقوق الطبع عن هذه النسخة محفوظة له

﴿ الطبعة الثانية ﴾

بمطبعة المنار بشارع درب الجمايز بمصر سنة ١٣٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٤ مَالِكِ
يَوْمِ الدِّينِ ٥ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٦ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ٧ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

﴿وبعد﴾ فلما كنت في بيروت من اعمال سوريا أيام بعدي
عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت في سنة ١٣٠٣
الى تدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ومنها كان علم التوحيد
رأيت ان المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتي على الغرض من افادة
التلامذة والمطولات تعلو على افهامهم ، والمتوسطات ألفت لزم من غير
زمانهم ، فرأيت من الاليق أن أملي عليهم ماهو أوسع بحالهم ، فكانت
أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها الى كفاية الطالب مأملي على
الفرقة الاولى في اسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تناوله ، : تمهيد
مقدمات وسير منها الى المطالب من غير نظرا الى صحة الدليل ، وان

جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، راميا الى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد ، غير ان تلك الإلمالي لم تحفظ الا في دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسي منها شيئا . وعرض بعد ذلك ما استقدمني الى مصر وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على مأمليت ، وذهب عن الخاطر جميع مألقيت ، الى أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسي ، ويصبو اليه عقلي وحسي ، وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد ، علما أنني أنه ركن العلم الشديد ، فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الا مل ، وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلي ، ما تلقاه بين يدي ، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة اليه ، في انشاء ما أرى التعويل عليه ، وذكرت ذلك لأخي (١) فأخبرني أنه نسخ مأملي على الفرقة الأولى فطلبتة وقرأته فاذا هو قريب مما أحب ، قديحتاج اليه القاصر ، وربما لا يستغني عنه المكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك في العقائد مسلك السلف ، ولم يعب في سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد ممليه عن أعاصير المشاغب ، لكن وجدت فيه إيجازا في بعض المواضع ، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع ، وإغفالا لبعض ما تمس الحاجة اليه ، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه ،

(١) هو محمود بك عبده وكان تلميذا في المدرسة السلطانية لذلك العهد

فبسطت بعض عباراته، وحررت ما غمض من مقدّماته، وزدت ما أغفل، وحذفت ما فضل، وتوكلت على الله في نشره، راجياً أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره، أو يفض من قدره، فما من أحد بدون أن يعين ولا يفوق أن يعان، والله وحده وليّ الأمر وهو المستعان،

مقدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم،

أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسعي هذا العلم به تسمية لهم بأهم أجزائه وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومتهى كل قصد. وهذا المطلوب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتي بيانه. وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره

يظهر من كل متكلم في كلامه وقلمه يرجع فيه الى النقل اللهم الا بعد تقرير الاصول الاولى، ثم الانتقال منها، الى ما هو أشبه بالفرع عنها، وان كان أصلاً لما يأتي بعدها، وإما لانه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين اشبه بالمنطق في تبينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وابدل المنطق بالكلام للفرقة بينهما



هذا النوع من العلم علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوءات كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الالزام بالعقائد وتقريريها من مشاعر القلوب على طرفي تقيض وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائج ومقدماته فكان جل ما في علوم الكلام تأويل وتفسير، وادهاش بالمعجزات، أو إلهاء بالخيالات، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة - منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولما يأتي بعدهم أن يقوموا عليه، فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بما عهد

الاستدلال به على النبوات السابقة بل جعل الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة منه، وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما وجب علينا أن نعلم، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة وخطب العقل واستنهض الفكر، وعرض نظام الكون، وما فيها من الأحكام والاتقان، على أنظار العقول وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادّعاه ودعا إليه حتى أنه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرّر أن للخلق سنة لا تغير وقاعدة لا تبدل فقال (٤٨: ٣٢) سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً) وصرح (١١: ١٣) أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٣٠: ٣٠ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) واعتضد بالدليل حتى في باب الأدب فقال (٤١: ٣٤) ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وتأخى العقل والدين لأوّل مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصرّيح لا يقبل التأويل. وتقررين المسلمين كافة إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كل علم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحي به إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته

وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على ان الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن ان يأتي بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات — وان كانت اقرب الى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الاجيال السابقة — فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم او في الجنس (١) كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا اليه أموراً يوجد ما يشبهها في الانسان كالاستاء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للانسان وجادل الغالين من أهل المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ووكل الامر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى يانه في هذه المقدمة . فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل فسخ مجالاً للناظرين خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤدّ إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو من التحديد

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة

الاعداء، وجمع كلمة الاولياء، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم، ليتلوا بالبحث في مباني عقائدهم، وما كان من اختلاف قليل رُدَّ اليهما، وقضي الأمر فيه بحكمهما، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة. وأغلب الخلاف كان في فروع الاحكام لافي اصول العقائد. ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه، ويفوضون فيما يورثهم التشبيه، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى الى قتله . هوى بتلك الاحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة، واصطدم الاسلام واهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها، وبقي القرآن قائما على صراطه (٩: ١٥) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي وأشعر الامر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم، وتغلب هو لا وأولئك على أهل الاصلة منهم، فقضيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاميين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ . يهودي أسلم وغلا في حب علي كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو إلى أنه الاحق بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه فذهب الى البصرة

وبث فيها فتنه فأخرج منها فذهب الى الكوفة ونفت ما نفت من سم
الفتنة ففني منها فذهب الى الشام فلم يجد فيها ما يريد فذهب الى مصر
فوجد فيها أعوانا على فتنه الى ان كان ما كان مما ذكرنا ثم ظهر بمذهبه
في عهد علي ففناه الى المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب
الغلاة من بعده

توالت الاحداث بعد ذلك وتقض بعض المبايعين للخليفة الرابع
ما عقدوا وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر الساطن الى
الامويين . غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة
بينهم وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة وأخذ الاحزاب في تأييد آرائهم
كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل . وكانت نشأة الاختراع
في الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس الى شيعة وخوارج
ومعتدلين . وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم وطلبهم
الحكومة أشبه بالجمهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلاً الى أن
تضعف أمرهم بعد حروب أكلت كثير من المسلمين وانتشرت فارتهم
في أطراف البلاد ولم يكفوا عن اشعال الفتن وبقيت منهم بقية
الى اليوم في أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب . وغلا بعض الشيعة
فرفعوا علياً أو بعض ذريته الى مقام الألوهية أو ما يقرب منه وتبع ذلك
خلاف في كثير من العقائد

غير ان شيئاً من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية ولم

يوجب ضياء القرآن عن الاطراف المتناهية عن مثار النزاع وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الاسلام ، وأن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والاحكام ، بما هداهم اليه سير القرآن ، اشتغالا يحرص فيه على النقل ، ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر ، ووجد من أهل الاخلاص من انتدب للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم ومن اشهرهم الحسن البصري فكان له مجلس للتعليم والافادة في البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع ، وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين ان يصلوا بينه وبين ما وجدوه ، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء ، من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رؤوس المشايق ، تعلو بين المسلمين ،

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب ، اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذة الحسن البصري واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه . غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأي ان العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه و ارادته .

الجبرية . تفرق المعتزلة وتأييد العباسيين لهم ١١

وقام ينزاع هؤلاء اهل الجبر الذين ذهبوا الى ان الانسان في عمله الارادي كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية . كل ذلك وأر باب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالامر ولا يُعْنَوْنَ برد الناس الى أصل وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ما شاء سوى ان عمر ابن عبد العزيز امر الزهري بتدوين ما وصل اليه من الحديث وهو اول من جمع الحديث .

ثم لم يقف الخلاف عند المسئلتين السابقتين بل امتدَّ الى إثبات صفات المعاني للذات الالهية أو نفيها عنها والى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الاحكام الدينية حتي ما كان منها فروعاً وعبادات (غلوا في تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالادول الاولى على ما سبق بيانه . ثم غالى آخرون وهم الأقلون فحوها بالمرّة وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب عنادا للاولين . وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد كأنها مبنى من مباني الاعتقاد الاسلامي تفرقت السبل بأتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان مالا يقبلونهم وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما اثبتته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً الى أوليات العقل ، وما كان سراً في نظر الوهم ، فخطوا بمعارف الدين مالا ينطبق حتي على أصل من أصول النظر ، ولجوا في ذلك حتي صارت شيعهم تعد بالعشرات . أيدهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ

التمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين

عرف الاولون من العباسيين، ما كان من الفرس في اقامة دولتهم وقلب دولة الامويين، واعتمدوا على طلب الانصار فيهم، واعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء. وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لادين له وغير أولئك من الفرق الفارسية. فأخذوا ينفثون من أفكارهم، ويشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم، فظهر الاتحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتي صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم

فيما حوالي هذا العهد كانت نشأة هذا العلم بنتالم يتكامل نموه، وبناء لم يتشامخ علوه، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشو بامبادى النظر في الكائنات جريا على ماسنه القرآن من ذلك. وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته وانتصر للاول جمع من خلفاء العباسيين وامسك عن القول أو صرح بالازلية عدد غفير من التمسكين بظواهر الكتاب والسنة، أو المتعفين عن النطق بما فيه مجارة البدعة، واهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغير حق. وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين. على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل، وما توسط أو غلامن الاستمسك بظواهر الشرع، والكل على وفاق على أن الاحكام الدينية

واجبة الاتباع — ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه، وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن، على ما حملوه عند التحافهم بالاسلام، وافرطوا في التأويل، وحولوا كل عمل ظاهر، الى سر باطن، وفسروا الكتاب، بما يبعد عن تناول الخطاب، بعد الخطأ عن الصواب، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ولهم أسماء آخر تعرف في التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين، وزلزال اليقين، وكانت لهم قنن معروفة، وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم، في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياءهم، كان أمر الخلاف بينهم جللاً، وكانت الايام بينهم دولا، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض، واستفادة كل فريق من صاحبه، الى أن الشيخ أبو الحسن الاشعري في أوائل القرن الرابع (١) وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر وارتاب في أمره الاولون وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ونصره جماعة من أكابر العلماء كأبي بكر الباقلاني وامام الحرمين والاسفرايني وغيرهم (٢) وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة. فانهمز من بين أيدي هؤلاء الافاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه

(١) ولد سنة ٢٧٠ وتوفي سنة ٣٣٠ ونيف (٢) أي نصره هؤلاء بعد موته

الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الاسلامية

غير ان الناصرين لمذهب الاشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نوااميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي اليه من عقائد الايمان ذهاباً منهم الى أن عدم الدليل يؤدي الى عدم المدلول ومضى الامر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالي والامام الرازي ومن أخذ مأخذهم فحلفوهم في ذلك وقرروا أن دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر في الاستدلال اما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم والوفاء بما يندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول ، أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاؤوا وكان الجمهور من أهل الدين يكتفهم بحمايته ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم وافادة الصناعة وتقوية اركان النظام البشري بما يكشفون من مساير الاسرار المكنونة في ضمائر الكون مما أباح الله لنا ان نتناوله بعقولنا وافكارنا في قوله (٢: ٢٩) خلق لكم ما في الارض جميعاً) اذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً. وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في سبيلهم الى ما هدوا اليه بعد ما رفع القرآن

من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار وبعد ما صح من قوله عليه السلام « اتم أعلم بشؤون دنياكم » (١) وبعد ما سن لنا في غزوة بدر من سنة الاخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر ان امرين غلبا على غالبهم (الاول) الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصاً عن ارسطو وافلاطون و وجدان اللذة في تقليدهم لبادئ الامر (والثاني) الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت وهو أشأم الامرين : زجوا بأنفسهم (٢) في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالآلهيات وما يتصل بها من الامور العامة أو احكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام

-
- (١) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة بالفظ « بأمر دنياكم »
 (٢) استئناف لبيان ثاني الامرين وكونه أشأمهما حاصله ان الفلاسفة لو لم يخطوا فنونهم بالدين ويزجوا بأنفسهم في المنازعات الدينية لتركوا شأنهم في البحث واذاً لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران .
 ذكره المؤلف في الدرس وكان من رأيه أنه يجب ان لا تمتزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية

يمس شيئاً من مباني الدين واشتدوا في تقده وبالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما نراه في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ما هو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم ثم جاءت فتن طلاب الملك من الاجيال المختلفة وتغلب الجهال على الامر وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الاسلامي فانحرفت الطريق بسالكها ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاورهم في الالفاظ وتناظر في الاساليب . على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور . ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجبهة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في انفسهم مالم يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للاسلام قبله باحتماله . غير انهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن بتاييع الدين أعواناً ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا في التضييل والتكفير ، وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب

هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا اسلام ، والدين من وراء ما يوهمون ، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون ، ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من انفسهم بعد طول الخلط وكثرة الخلط ؟ شرّ عظيم وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المين ، وكيف عبثت به في نهاية الامر أيدي المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعثوا به عن حده ،

والذي علينا اعتقاده ان الدين الاسلامي دين توحيد في العقائد ، لا دين تفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فتزغات شياطين ، أو شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كلِّ بعمله ، قاض عليه في صوابه وخطئه ،

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به . والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد ، حسبما أرشدنا اليه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين ايدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقايقه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه . ونهانا عن التقليد بما حكى عن احوال الامم في الاخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من

ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملي ، وحق ما قال
فان التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل ، وكما يكون في النافع
يحصل الضرر ، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجمل بحال الانسان

اقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة اقسام ممكن لذاته وواجب لذاته
ومستحيل لذاته (١) ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي
اما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي والممكن ما لا وجود له
ولا عدم من ذاته وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده وقد
يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره . واطلاق المعلوم على المستحيل
ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد ان يكون له كون في الواقع
ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه
وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل
بها الى الحكاية عنه

(١) هذه القسمة عقلية وهي للحصر لأن ما يتعلق به العلم اما
ثابت قطعاً لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب وإما ضده وهو المستحيل
واما واسطة بينهما وهو ما لا تقتضي ذاته الثبوت ولا الانتفاء بل يجوز لها =

﴿ حكم المستحيل ﴾

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته (١)

= الامر ان بحسب العلل وهو الممكن . فمضى كون الشيء ممكناً أو مستحيلاً أو واجباً لذاته هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته أي ان ذاته إذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن الا كذلك . والمراد بالإمكان والوجوب والاستحالة ما كان كذلك بحكم العقل القاطم لا العادة فمثال المستحيل اجتماع القیضين ككون الشيء موجوداً معدوماً في آن واحد أي موجوداً لا موجوداً فهذا معلوم يجزم العقل بعدمه أي عدم تحققه لذاته أي ان ذاته لا يمكن ان تكون ثابتة وليس منه مشي الانسان على الماء أو طيرانه وانما هذا مستحيل عادة . ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للاربعة فانك لا يمكنك ان تتصور العدم المحض ولا كون الاربعة ليست زوجاً . مثال الممكن ظاهر فان جميع ماهيات هذه الموجودات التي نذكرها بحواسنا ممكنة الوجود كما يعلم مما يأتي في الرسالة (١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشيء هو هو ونوضح ذلك بقولنا ان ماهية الشيء ترادف حقيقته في الجملة ومثال ذلك ان ما يتصوره الذهن من معنى الانسانية الكلي الذي يوجد في كل إنسان غير مصاب بعلة ككونه حيواناً ناطقاً عاقلاً يسمى ماهية الانسان وحقيقته

من حيث هي فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هي عنها وهو يؤدي إلى سلب الماهية (١) عن نفسها بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بوجود قطعاً بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة (٢) كما أشرنا إليه فهو ليس بوجود في الخارج ولا في الذهن

= ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار فما يتعقل من معنى الشيء الذي تقوم به ذاته ويجاب به اذا سئل عنه بما هو ذلك الشيء يسمى ماهية وإنما يسمى حقيقة او ذاتا باعتبار تحققه ولذلك يطلق لفظ الماهية على ما لا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة . ولازم الشيء ما لا ينفك عنه كلزوم الانقسام الى متساويين للزوج

(١) قال المؤلف ان هذا من القضايا التي قياساتها معها لان سلب اللازم انما يكون بسلب المزوم وهو كون الماهية هي . أي فهو كسلب الانقسام الى متساويين عن عدد الزوج وهو نفي لكونه زوجا فكانك قلت انه زوج غير زوج

(٢) يريد بهذا ان ما ذكر من ماهية المستحيل هو امر اعتباري او فرضي يخترعه العقل لا جل الحكاية عنه كما تقدم في الرسالة (ص ١٨) لا لأن له تحققاً في نفسه فالحق ان المستحيل ليس له ماهية ثابتة لا في الخارج لأن ما في الخارج هو الموجود بالفعل والمستحيل لا يوجد، ولا في الذهن لان ما في الذهن لا يكون الا صورة لما في الخارج منتزعة منه ولذلك قال فهو ليس بوجود الخ

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب وذلك لانه لا واحد من الأمرين له لذاته فنسبتهما إلى ذاته على السواء فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحدهما المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة (١)

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثا لانه قد ثبت أنه لا يوجد الا بسبب فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والأول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة وهو ابطال لمعنى الحاجة وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدي إلى خلاف المفروض (٢) والثاني كذلك والا لزم تساويهما في رتبة الوجود فيكون

(١) أي لانه جمع بين النقيضين اذ معناه انهما متساويان

غير متساويين في آن واحد . فهو من القضايا التي قياسها معها

(٢) أي إن وجوده قبل سببه يؤدي الى الجمع بين النقيضين وهو كونه اي الممكن محتاجا في وجوده الى السبب غير محتاج اليه . وقوله «والثاني كذلك» ظاهر فان وجود الشيء مع وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضي ان ما فرض سببلا لا يكون سببا وأن الممكن محتاج الى السبب غير محتاج اليه وهو تناقض ظاهر . وقوله «الا لزم تساويهما في رتبة الوجود» مثاله ان يوجد الاب والابن اي يولدا في وقت =

الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحاً بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل. على أن عليّة أحدهما ومعلولية الآخر جحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقاً بالعدم في مرتبة وجود السبب فيكون حادثاً إذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج في عدمه الى سبب وجودي لان العدم سلب والسلب لا يحتاج الى ايجاد بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سبباً في بقاءه أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودي ضرورة لان العدم لا يكون مصدراً للوجود فالموجود إن حدث فانما يكون حدوثه بايجاد وذلك كله بديهي

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضي الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخارجي الوجودي فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته فيكون في جميع أحواله محتاجاً الى مرجح الوجود عن العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد ومعطي الوجود وهو

= واحد. ومن البديهي ان الشخصين اللذين يولدان في وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أباً والآخر ابناً

الذي يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموحدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقي ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذي يهيئ الممكن لقبول اليجاد من موجدته وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه في الابتداء ويستغنى عنه في البقاء وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ومن هذا القليل وجود البناء فانه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه وليس البناء واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذهنه واطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الاولى فان الاولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الاولى أما استفادة الوجود فتقتضي سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وان يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الاحوال

الممكن موجود قطعاً

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت
كاشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة

أو ممكنة لا سبيل الى الاول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الى الثاني لان الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجي في أحكام الواجب فهي ممكنة فالممكن موجود قطعاً

وجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها فإما ان يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الاول ولنفسه فقط إن فرض أول . وبطلانه ظاهر. فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب ثابت ان للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود (١)

وأيضاً الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة

(١) هذه هي نتيجة تلك المقدمات كلها وملخصها ان المستحيل لا يوجد والممكن موجود بالفعل ويوجد دائماً ووجوده يدل على وجود الواجب قطعاً

بوجود فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات
 الممكنات وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من
 الماهيات الممكنة بمقتضى للوجود فتعين أن يكون مصدره سواها وهو
 الواجب بالضرورة

احكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديماً أزلياً لأنه لو لم يكن كذلك
 لكان حادثاً والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقاً بعدم
 وكل ما سبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان
 المرجوح بلا سبب وهو محال فلم يكن الواجب قديماً لكان
 محتاجاً في وجوده إلى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ما كان
 وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجباً واجباً وهو تناقض محال ومن أحكامه
 أن لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود إلى
 سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركباً اذ لو تركب لتقدم وجود كل
 جزء من أجزائه على جوده جملة التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير
 ذاته بالضرورة فيكون وجود جملة محتاجاً إلى وجود غيره وقد سبق

أن الواجب ما كان وجوده لذاته . ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفاً على الحكم بوجود اجزائه وقد قلنا انه لذاته من حيث هي ذاته . ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون جزء من اجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية (١) وأخارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بتركب فان الاجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع في الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كانت ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق (٢) لا حقيقة

كما لا يكون الواجب مركباً لا يكون قابلاً للقسمة (٣) في أحد الامتدادات

(١) قوله حقيقة عقلية مبني على القول بها على سبيل التوضيح والا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له وقد نفاها المؤلف في الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة إلا إدراكها أي الصور التي ينتزعها الذهن من الوجود الخارجي . وبين في درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون في الوجود العقلي ومذهب أرسطو في كون الصور الذهنية هي حقائق هذه الموجودات الخارجية

(٢) أي تصوراً مخترعاً لا يصدق على شيء في الواقع

(٣) سئل المؤلف في الدرس هل يسبق ذلك بالجوهر الفرد بالمعنى

الذي يقولونه وهو انه لا يقبل القسمة فعلاً ولا عقلاً ولا وهماً فقال ان =

الثلاث أي لا يكون له امتداد لانه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول وصار الى وجودات متعددة وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولاً للعدم أو تركباً وكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وان كان بديها عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداية كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره والا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر واكمل مثال في اي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وان في النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها

= الجوهر الفرد بهذا المعنى لا حقيقة له ونحن نحمل كلام من يقول بالجوهر الفرد على الجزء الذي لا ينقسم فعلا لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعاً

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالاً في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأممكن أن يكون له وجب أن يثبت له، وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعدّ من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والإرادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالاً للوجود بداهة فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة (١) وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حي وإن باينت حياته حياة الممكنات فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة. ولو لم تثبت له هذه الصفة (٢) لكان في الممكنات ما مئوأ كمل منه وجوداً وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

(١) دليل فيه اضمار تقديره وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودي فالحياة كمال وجودي (٢) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود. وقوله بعده «والواجب هو واهب الوجود» دليل ثالث

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقداً
للحياة يعطيها فالحياة له كما أنه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت
له تلك الصفة أي مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات
الوجودية التي تعد كمالاً في الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل
ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم
ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن
الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالماً لكان في الموجودات
الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا. ثم هو
واهب العلم في عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده
علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده
عن الوجودات فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطاً بكل ما يمكن
علمه وإلا تصور العقل عالماً أشمل، وهو إنما يكون لوجود أكمل،
وهو محال.

ما هو لازم لوجود الواجب يغني بغناه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من
لوازم وجوده فلا يفتقر الى شيء ما وراء ذاته فهو أرلي أبدي غني عن
الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما شاهد في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ووضع كل شيء في موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده وبقائه وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الالعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه فترى بزره الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في ارض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمي بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذي المر الزعاق، وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق، وإرشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له فهو الذي يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل

خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله الى الايدي والارجل والايين
والمشام والاذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده وبقية من
العوادي عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء
التي لا غنى عنها في النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص او للنوع
هو الذي يعلم حالة الجروء من الكلاب مثلاً وأنهامتى كبرت تلد
أجراء متعددة فيمنحها أطباء (١) كثيرة وغير ذلك مما لا يستطيع
إحصاؤه وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما
يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه . على أن
الباحثين في ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما
كشفوا من الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هذا الصنيع الذي انما تتفاضل العقول في فهم أسرارهِ والوقوف على
دقائق حكمه ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء الذي أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة (٢) أن يكون
ينبوعاً لهذا النظام وواضعاً لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الالكوان

(١) الاجراء جمع جرو والاطباء جمع طبي بالكسر وهو حلمات
الضرع (٢) الصدفة استعمل هذا اللفظ المولدون ولم يعرف عن
العرب وقد استبدل به المؤلف في تصحيح خطبة شرحه لهج البلاغة
لفظ المصادفة وتركه هنا

عظيمها وحقيرها؟ كلاً بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه
مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود الإرادة وهي صفة تخصص فعل العالم
بأحد وجوهه الممكنة. بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو
الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه
ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه إنما يفعل على حسب علمه ثم إن كل
موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محددان
وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان
على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للإرادة إلا هذا

أما ما يعرف من معنى الإرادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده
وأن يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب فإن هذا المعنى من
الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص في العلم
فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على
الفعل والترك

القدرة

ومما يجب له القدرة وهي صفة بها الإيجاد والاعدام ولما كان

الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه و ارادته فلا ريب يكون قادراً بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان

﴿ الاختيار ﴾

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار اذ لا معنى له الا اصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من افعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا ارادة وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعاه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزهها عن اللائمة تعالى عن ذلك علواً كبيراً ولكن نظام الكون ومصلحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكل الوجودات وأرفعها فالكمال في الكون انما هو تابع لكمال المكوّن وإتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (٢٣ : ١١٥) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وانكم لنا لاترجعون (وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تُنَزَّه عن العبث ويستحيل ان تخلو من الحكم وان خفي شيء من حكمها عن أنظارنا (١)

(١) قد تخفى حكمة الشيء عن البشر زماناً طويلاً ثم تظهر

(٣ رسالة التوحيد)

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا أما الوحدة الذاتية فقد اثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجاً وعقلاً وأما الوحدة في الصفة أي أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من ان الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات. وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات فهي ثابتة لانه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والا لم يحصل معنى التعدد وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لان الصفة انما تتعين وتنال بتحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبدهة فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة يباينان علم الأخرى واراداتها ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لان علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق وقد قدّمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته فيكون فعل كلّ صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد

الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم واراادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الایجاد في عامة الممكنات فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه واراادته ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الاخرى فتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم واراادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل ان يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الایجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (١) لكن الفساد ممتع بالبداهة فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجود ولا في أفعاله

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدّمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدّمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه ولسان

(١) تقرير لكون قوله تعالى (٢١ : ٢٢) لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا « برهاناً قطعياً لادليلاً اقناعياً كما زعم من لم يفهم الآية والمراد بقوله فيهما السموات والارض المذكورتين في الآية ١٩

من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين
ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا
حمل على ما يليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدي اليه النظر وحده
ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع
وتصديقاً لما أخبر به

فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض
انبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه
لا بد ان يكون شأننا من شؤونه قديماً بقدمه (١)

(١) إن الله تعالى جعل للناس طرقاً عامة كالحواس والعقل
يكسبون بها العلم كسباً فينالون منه بحسب اجتهادهم واختص من
شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم بلا كسب منهم ولما كانت
القوة التي يتمكن بها الانسان من إفادة غيره العلم تسمى كلاماً نفسياً
وما تحصل به الإفادة بالفعل من قول أو كتابة يسمى كلاماً لفظياً
استعير هذا اللفظ للشأن الإلهي الذي به يوحي الله الى أنبيائه ما شاء
من العلم فقيل ان لله كلاماً هو صفة له يعني شأننا من شؤونه هو
مصدر الوحي وإفادة العلم للانبياء والملائكة وسمي ما يوحيه اليهم
كلاماً أيضاً وليس في اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا
اللفظ المستعمل في كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله عن مشابهة
كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم . وقد حذفنا من هنا =

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهي ما به تنكشف المبصرات وصفة السمع وهي ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا ان نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدة ولا باصرة مما هو معروف لنا

كلام في الصفات اجمالاً

أبتدى الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملة وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » (١)

= نحو صفحة من الرسالة في مسألة الخلاف في خلق القرآن عملاً بأمر المؤلف اذ كتب بخطه على هامش نسخته ما نصه : « في الطبعة الثانية يحذف القول في خلق القرآن » وبين لنا السبب في ذلك في الدرس فقال انه التزم في الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التي ليست من مذهبهم وكان الذي ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشقيطي (رحمهما الله تعالى) فاذعن وذكر ذلك في الدرس وقد نوهنا بذلك في العدد ٢٥ من منار السنة الأولى في مقالة عنوانها (سجاياء العلماء) (١) الحديث ورد بالفاظ يتفق معناها قال الحافظ العراقي في تخریج احاديث الاحياء رواه ابو نعیم في الحلیة بالمرفوع منه باسناد ضعيف . =

إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان او وجدانا او عقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناسبتها وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها أما الوصول الى كنهه (١) حقيقة ما فيها لا تبلغه قوته لان اكتناه المركبات (٢)

= ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر اصح منه ورواه الطبراني في الاوسط واليهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك اهـ زاد الزبيدي في الشرح قلت حديث ابن عمر لفظه «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» هكذا رواه ابن ابي الدنيا في كتاب التفكير وابو الشيخ في العظمة والطبراني في الاوسط وابن عدي وابن مردويه واليهقي وضعفه والاصبهاني وابو نصر في الابانه وقال غريب . ورواه ابو الشيخ من حديث ابن عباس «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره» ورواه ابن النجار والرافعي من حديث ابي هريرة «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد اهـ

(١) كنه الشيء جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الكنه هي معرفة الاحاطة التي ليس وراءها غاية يبحث عنها (٢) الا اكتناه معرفة الكنه ومثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه وهو عنصران =

انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي الى البسيط الصرف وهو
لا سبيل الى اكتناؤه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه
وأثاره . خذ أظهر الاشياء وأجلاها كالضوء قرر الناظرون فيه له أحكاما
كثيرة فسلوها في علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو
ولا ان يكتنه معنى الاضاءة نفسه وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل
بصير له عينان . وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من
الكائنات . وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله ان
كان سليما . انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به
وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه
إضاءة للوقت وصرف للقوة الى غير ماسيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه : أراد
أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر ؟ هل هي قبل الجسم
أو بعده ؟ هل هي فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه صفات لم يصل العقل الى
اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له

= بسيطان بحسب ما وصل اليه علم من اكتشاف هذا التركيب يسمونهما
الاكسجين والادروجين . فتقول الماء سائل شفاف مركب من
الاكسجين والادروجين على نسبة معينة فيشبه هذا أو يقرب ان يكون
اكتناها . اما اكتناه البسيط كالادروجين فلا سبيل اليه كما قاله بعد

شعور وارادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها بيديته . أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود او ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الافعال انه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الاعلى ؟ ماذا يكون دهشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الازلي الابدي ؟ النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام . وتختلف الانظار في الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويلعق على الباطل بتعاون الافكار أو صولة القوي منها على الضعيف أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب لا اكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولا استحالة التركيب في ذاته ، وتناول ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لانه سعي الى ما لا يدرك ومهلكة لانه يؤدى الى الخبط في الاعتقاد لانه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره لا ريب ان هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها فالنهي واستحالة الوصول الى

الاكتناه شاملان لها فيكفيها من العلم بها أن نعلم انه متصف بها . اما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا ان تصل اليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكالية . أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها

فالذي يوجه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات أزلي أبدي حي عالم مرید قادر متفرد في وجوب وجوده وفي كمال صفاته وفي صنع خلقه وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه . أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف فيها النظر وتفرقت فيها المذاهب فما لا يجوز الخوض فيه اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه والاستدلال على شيء منه بالالفاظ الواردة ضعف في العقل وتغريب بالشرع لان استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة واثن انحصر فيها فوضع اللغة لاتراعى فيه الوجودات بكنها الحقيقية وانما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع فما علينا الا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا وان نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما ثبت له تعالى بالامكان الخاص (١) فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلاً فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الإشارة إليه

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحقى التي اختبط فيها القوم اختباط أخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد ثم التقوا في غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل ان الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحرت بينهم القتال ولا زالوا يتجادلون حتى تساقط جملهم دون المطلب ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقي وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً

(١) الامكان الخاص عبارة عن كون كل من ايجاب ذلك وسلبه غير ضروري أي لا يمتنع فعليه عقلاً ولا يتحتم

على بلوغ ما أبلوا ولواقتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين
نريد تلك المقالات المضطربة في انه يجب على الله رعاية المصلحة في افعاله
وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عييده وما يتلوه ذلك من وقوع اعماله
تحت العلل والاغراض فقد بالغ قوم في الايجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم
انهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه ان يجهد للقيام بما عليه
من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علوا كبيرا
وغلا آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل للمعنى في مقالاتهم
انهم لا يرضونه إلا قلبا يبرم اليوم ما تقضيه بالامس، ويفعل غدا ما اخبر
بتقيضه اليوم، او غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله «سبحان ربك رب العزة عما
يصفون» وهو احكم الحاكمين واصدق القائلين جبروت الله وطهارة
دينه أعلى وارفع من هذا كله

اتفق الجميع على ان افعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرح الفلاة
والمقصورون جميعا بأنه تعالى منزّه عن العبث في افعاله والكذب في
أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابدون بالالفاظ ويتمارون في الاوضاع ولا
يدرى الى اي غاية يقصدون فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد الى حقيقة
واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما او يدفع فسادا
خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من اي وجه لعقله وحكم بان العمل
لم يكن عبثا ولعبا. ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا كما كنا الى

أوضاع اللغة وبداهة العقل . لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثلها الا اذا كان ما يتبع العمل مرادا لفاعله بالفعل والا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة في نومه قتلت عقربا كادت تلسع طفلا أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها، بل لو سم بالحكمة كثير من العجاوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة او العادة والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث » ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر الا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها وان كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بموجد كل عقل ومتمهي الكمال في العلم والحكم؟ هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد صنع الله الذي أتقن كل شيء (١) وأحسن خلقه (٢) مشحون بضروب الحكم ففيه ما قامت به السموات والارض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره وما صانه عن الفساد الذي يفضي به الى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته خصوصا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وايتاء

(١) إشارة الى سورة النمل ٢٧ : ٨٨ (٢) سورة الم السجدة ٣٢ : ٧

كل محتاج ماله اليه الحاجة إما ان تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا. لا يمكن القول بالثاني والا لكان قولاً بقصور العلم ان لم تكن معلومة أو بالغفلة ان لم تكن مرادة وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا الا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ومن المحال ان تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل ان تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة اذ لو صح توهم ان ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وارادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال في وجوب تحقق ما وعد وأوعد به فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين. وما جاء في الكتاب او السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات السابق إيرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالعظمة وجليل عظمته. والاصل الذي يرجع اليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى (٢١: ١٦) وما خلقنا السماء والارض وما بينهما الا عينين ١٧ لو أردنا ان نتخذ لهم آياتاً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمره فاذا هو زاهق ولهم الويل مما تصفون)

وقوله «لا تأخذناه من لدنا» أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص وهو محال «وان» في قوله «ان كنافاعلين» نافية وهو نتيجة القياس السابق (١)

بقي ان الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين فمنهم من يطلب علمها لانه شهوة العقل وفيه لذته فهذا القسم يسمى المعاني بأسمائها ولا يبالي جواز شرع اطلاقها في جانب الله ام لم يجوز فيسمي الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة وليس من رأيه ان يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاق اسم متي صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشؤون لا له عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط في تنزيهه ولو بعبء اللسان عن النطق بما يوهم نقصا في جانبه فيتبرأ من تلك الالفاظ مفردا ومركبا فان الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالآغيار، ورعاية المصلحة توهم أعمال النظر وإجالة الفكر، وهما من لوازم النقص في العلم، والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل الى نهايته وفيها ما في سوابقها. ولكن الله أكبر، هل يصح أن تكون سعة المجال، أو التعفف في المقال، سببا في التفرقة بين المؤمنين وتمازيمهم في

(١) القياس هو قوله في آخر ص ٤٤ فهذه الحكم التي نعرفها الخ

الجدال، حتى ينتهي بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال ؟

افعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعد نكارشيء من ذلك مساوياً لانكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضاً في بني نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى الى منجاة فسقط في مهلكة فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ويتخذ من خيته أول مرة مرشداً له في الأخرى فيعاود العمل من طريق أقوم، وبوسائل أحكم، ويتقد غيظه على من جال بينه وبين ما يشتهي إن كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه فينبهري لمنازلته . وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله كأن هب ريح فأغرق بضاعته أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته أو علق أمله بمعين فمات أو بذى منصب

فغزل يتجه من ذلك الى أن في الكون قوّة أسمى من أن تحيط بها قدرته، وأن وراء تديره سلطاناً لا تصل اليه سلطته، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى ان حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه واراדתه خضع وخضع ورد الأمر اليه فيما لقي، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات، أسمى من قوى الممكنات، يشهد بالبدهاة أنه في أعماله الاختيارية، عقلية كانت أو جسمانية، قائم بتصرف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله. وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله

على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيئاً منه قد أنكر مكان الايمان من نفسه وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله واراדתه وبين ما تشهد به البدهاة من عمل المختار، فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طالب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدل وقوفاً حيث ابتدؤا، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتوا، فمنهم القائل بسلطة

العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرح به، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الإيمان ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لا فاعله يؤدي إلى الإشراف بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراف على ما جاء به الكتاب والسنة فالإشراف اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة وأن شيئاً من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سنوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الآخرة أو الدنياوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا، هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية (الاول) أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته و (الثاني) ان قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريد وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه . جاءت الشريعة لتقرير

(٤ رسالة التوحيد)

ذلك وتحريم ان يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه أن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ماعنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد ان يذهب الى غير ذلك وهذا الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عجبت له الامم وعول عليه من متأخري أهل النظر امام الحرمين الجويني رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

أكرر القول بأن الايمان بوحداية الله لا يقتضي من المكلف الا اعتقاد أن الله صرفه في قواه فهو كاسب لا يمانه ولما كلفه الله به من بقية الاعمال ؛ واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ولها وحدها السلطان الاعلى في اتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهية الاسباب المتمة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته

أما التطلع الى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا وانما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار عن الاسرار ولا انكر ان قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمانت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ؛ ولكن قليل ما هم على أن ذلك نور يقذفه الله في قلب من شاء، ويخص به أهل الولاية والصفاء ؛ وكثر ما ضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الاثر فيما عليه حال الامة اليوم لو شئت لقربت البعيد فقلت ان من بالغ الحكم في الكون ان

تتنوع الانواع على ماهي عليه في العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه وكذا الحال في تميز الاشخاص فواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها على ماهي عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ومن تلك الانواع الانسان ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتب لمميزاته هذه ولوسلب شيء منها لكان إما ملكا او حيوانا آخر والفرض انه الانسان فبنة الوجود له لاشيء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته وبان عمل كذا يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر والاعمال في جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شيء في العلم بسالب للتخير في الكسب وكون مافي العلم يقع لا محالة انما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا في علومنا الكونية أقرب الامثال: شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لا ميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالإلزام فانكشف الواقع للعالم لا يصلح في نظر العقل ملزما ولا مانعا وانما يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ . ولوشئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن

لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمحاكات
اللفظية لكن يمنعني عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه في صحة الايمان
وتقاصر عقول العامة عن ادراك الأمر في ذاته مهما بالغ المعبر في
الايضاح عنه والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم
يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقا لما
يعتقدون فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته ، وان
أدّى ذلك الى جحد العقل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلم تجد
بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صاح من أعماق سرائرهم « ويل
للخابط ذلك قلب لسنة الله في خلقه وتحريف لهديه في شرعه » عرتهم
هزة من الجزع ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو المؤلف ،
وما أقمنا الا على معروف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الاكوان
الواقعة تحت مداركنا وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار
صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت
حواسنا أو حضورها في مخيلاتنا وذلك بديهي لا يحتاج الى دليل
نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الاشياء والقبيح منها

فان اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد في جمال ألوان الأزهار، وتنضيد أوراق النباتات والاشجار، خصوصاً اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الالوان بعضها مع بعض، ولا في قبح الصورة الممثل بها بهتيم بعض أجزائها واتقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاب، ومن القبيح اشمئزاز أو جزع، وما يقع هذا التمييز في المبصرات، يقع في غيرها من المسموعات والملموسات، والمذوقات والمشمومات، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم بإحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وماهو القبح في الاشياء، ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الانسان بل و بعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران في أطواره الى الحد الذي نراه عليه الآن وان اختلفت الاذواق ففي الأشياء جمال وقبح

هذا في المحسوسات واضح كما سبق . ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلزم به العقل من الموجودات المعقولة وان اختلف اعتبار الجمال فيها فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والارواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه، وتنبهره بصائر لاحظيه، وللقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور

يبعض أطواره في الوجدان عن أثر الاحساس بالقبح في المحسوسات .
وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل والسقوط في الهمة وضعف
العزيمة . ويكفي أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون في إخفائها
ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون باضدادها

وقد يحمل القبح بجمال أثره، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به، فالمرقبيح
مستبشع، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر، لكن أثر المر في
معالجة المرض وعدل الدميم في رعيته وإحسانه إليك في خاصة نفسك
يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فان جمال الاثر يلقي على
صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل . ومثل ذلك
يقال في قبح الخلو اذا أضر، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر،
هل يمكن لعقل ان لا يقول في الافعال الاختيارية كما قال في
الموجودات الكونية مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا
العقلية إما بنفسها وإما بأثرها وتنفعل نفوسنا بما يلزم بها منها كما تنفعل بما
يرد عليها من صور الكائنات؟ كلا بل هي قسم من الموجودات حكمها
في ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الافعال الاختيارية ما هو معجب في نفسه تجد النفس منه
ما تجد من جمال الخلق كالحرركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من
الإيعين في الألاعيب المعروفة اليوم « بالجناسديك » وكإيقاع النغمات
على القوانين الموسيقية من العارف بها . ومنها ما هو قبيح في نفسه يحسن

منه ما یحس من رؤیة الخلق المشوه کتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع وکولولة النائمات وتقع المذعورین (١)

ومنها ما هو قبیح لما یعقبه من الالم وما هو حسن لما یجلب من اللذة أو دفع الالم فالاول كالضرب الجرح وکل ما یؤلم من أفعال الانسان والثانی کالا کل علی جوع والشرب علی عطش وکل ما یحصل لذة أو يدفع ألما مما لا یحصی عده وفي هذا القسم یكون الحسن بمعنى ما یلذ والقبیح بمعنى المؤلم

وقلما یختلف تمييز الانسان للحسن والقبیح من الافعال بالمعنیین السابقین عن تمييز الحيوانات المرتقیة فی سلسلة الوجود اللهم الا فی قوة الوجدان وتحدید مرتبة الجمال والقبیح

ومن الافعال الاختیاریة ما یحسن باعتبار ما یجلب من النفع وما یقبح بما یجر الیه من الضرر ویختص الانسان بالتمييز بین الحسن والقبیح بهذا المعنی اذا أخذ من أکمل وجهاته ، وقلما یشاركه فی حیوان آخر اللهم الا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل وسر الحکمة الالهیة فی هبة الفکر فمن اللذیذ ما یقبح لشؤم عاقبته کالافراط فی تناول الطعام والشرب والالتقاط الی سماع الاغانی والجري فی اعقاب الشهوات فان ذلك مفسدة للصحة مضیعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل وانما قبح اللذیذ فی هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة ما یجر الیه عادة من الآلام

(١) تقع المذعورین صیاحهم

التي ربما لا تنتهي الا بالموت على أسوأ حالاته ولضعف النسبة بين متاع
اللذة ومقاساة شدائد الالم . ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب
في الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات
الضعف ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً
من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حفظها من التمتع بما قدر لها من
اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب او على نمط يخفف من
رزايا الحياة إن عدت الحياة مثاراً لها

ومن المؤلم الذي عده العقل البشري حسناً مقارنة الانسان
عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن
انصاره ومنهم بنو آنيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته حسب ارتقائه في الاحساس ،
ومخاطرته ولو بحياته في سبيل ذلك كأنه يرى في بذل هذه الحياة
أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله . ومنه معاناة
التعب في كشف ماعمي عن علمه من حقائق الكون كأنه لا يرى
المشقة في ذلك شيئاً بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق
بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيد المستقبح مديد الى ما كسبه الغير بسعيه
واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحمود عليه أو ماله لما في ذلك من جلب
الخفاة العامة حتى على ذات المتعدي ويمكنك من نفسك استحضار
ما يتبع الوفاء بالهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع وسمى
الاول فعل الشر والثاني عمل الخير وهذا التفريق هو منبت التمييز
بين الفضيلة والرذيلة وقد حددهما النظر الفكري على تفاوت في
الاجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين وناط بهما
سعادة الانسان وشقاءه في هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران
البشري وفساده وعزة الامم وذاتها وضعفها وقوتها وان كان المحددون
لذلك والآخذون فيه يحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر
كل هذا من الاوليات العقلية لم يختلف فيه ملتي ولا فيلسوف
فللاعمال الاختيارية حسن وقبح في نفسها أو باعتبار أثرها في الخاصة
أو في العامة والحسن أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعاني
السابقة بدون توقف على سمع . والشاهد على ذلك ما نراه في بعض
أصناف الحيوان وما نشهده في أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع
وما وصل إلينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه في جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهدته بعض الناظرين في أحوال النمل
قال كانت جماعة من النمل تشتغل في بيت لها فجاءت نملة كأنها القائمة
بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع
المناسب فأمرت بهدمه فهدم ورفع البنيان الى الحد الموافق ووضع السقف
على أرفع مما كان وذلك من أنقاض السقف القديم وهذا هو التمييز
بين الضار والنافع فمن زعم أن لا حسن ولا قبح في الأعمال على

الاطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقاً من النمل
سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فاذا
وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم
تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر في
ذلك وفي أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل في الانسان يبقى بعد موته
كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً إلى أن بقاء
النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال ان
سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل وانها إنما تسقط في الشقاء
بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو
نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ومنها ما هو ضار لها بعده
بإيقاعها في الشقاء فأني مانع عقلي أو شرعي يحظر عليه أن يقول بعد
ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وان جميع الفضائل وما يتبعها من
الأعمال مفروضة وان الرذائل وما يكون عنها محظورة وأن يضع
لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد
والى ان يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه ؟
أما أن يكون ذلك حالاً لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة
وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى والرذائل مدار الشقاء فيها
فما لا يستطيع عاقل أن يقول به والمشهود من حال الامم كافة يضل
القائل به في رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلاً وكان ما وهب له من الفكر واقفاً عند حد ما إليه الحاجة لا هتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفرادها ولسعدت حياته وتخلص كلٌّ من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد، ولا تختص معيشته بجو من الاجواء، ولا بوضع من الاوضاع، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته في أي إقليم وعلى أي حال، وأن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهي درجاته ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات الا باستقامة القامة وعرض الاظفار

وهب الله الانسان أو ساط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة والخيالة والمفكرة - فالذاكرة تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الاشياء أو الاضداد الحاضرة فقد يذكّر الشيء بشبهه وقد يذكّر بضده كما هو بديهي والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشئ له مثل لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضي ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه فتاجأ الى الفكر في تدوير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذّكر هادئ الخيال صحيح الفكر ينظر مثلاً في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع وضاعت يده عما يقيم معيشته فيذكر المألأ الحاجة مضت ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء في سد حاجاته أو في دفع الألم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التي لا تتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهبه الله من القوى في نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالا مثلاً في يد غيره فيذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلاً في المستقبل ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعتمد الى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخلّ بالأمن الذي أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المتطرفين لمثل عمله . وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا في المثالين - فلقوة الذّاكرة وضعفها وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الأعمال ، واللامزجة والأجواء وما يحتف

بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر
بل وفي الذكر

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار
و بعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم وأهل
النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في
معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن
كان مؤلماً في الحال وأن القبيح ما جر إلى فساد في النظام الخاص
بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وإن عظمت لذته الحاضرة
ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم في أمرجته
وسخنتهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم فلذلك ضربوا إلى الشرف في
كل وجه وكل يُظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقي ضاراً فالعقل البشري
وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة
اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن فإن كان لهم من الشأن العظيم
ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال وقد سبقت الإشارة
إليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة
بعد هذه الحياة فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر
معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وأحرفت
بها عن مسلك السعادة فليس في سعة العقل الانساني في الافراد كفاية

أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وان لم ينل شرف الاقتداء بهدي نبوي ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهي

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل اليه وحده وهو تفصيل الذائد واللام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو بوجه ما ومن الاعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور بعض العبادات كما يرى في أعداد الركعات وبعض الاعمال في الحج في الديانة الإسلامية وبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية وضروب التوسل والزهادة في الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله أن فيه سعادته

لهذا كله كان العقل الانساني محتاجاً في قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ما هو خير له في الحياتين الى معين يستعين به في تحديد أحكام الاعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الالهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة وبالجملة في وسائل السعادة في

الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بني جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليفة ويكون بذلك مبرهنًا على أنه يتكلم عن الله الذي يعلم مصالح العباد على ما هي عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغي أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعد فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبط ما تشئت عليه أو ذكر ما ضعف عن ادراكه وذلك المعين هو النبي النبوة لتحديد ما ينبغي أن يلاحظ في جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم في مقامات عرفانهم لكنها لا تحتمل إلا ما فيه الكفاية للعامة فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات الذي اثبتناها على الوجه الذي بيناه وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه الخصوص وحسن المعرفة وخطر الجهالة أو الجحود بشيء مما أوجبه الشرع في ذلك وقبحه مما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة مطمئن به النفس ولو استقل عقل بشيء بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذي هو عماد الطمانينة فإن زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التي نص عليها كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير أن ذلك

لا يتنافي أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة في نفسها وإنما جاء الشرع مينا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر مثالا من كثير قال تعالى على لسان يوسف (١٢ : ٣٩) أَرَأَيْتَ إِنْ تَفْرُقَ الْآلَةَ يَفْرُقَ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي وَجْهَةِ قُلُوبِهِمْ إِلَى أَعْظَمِ سُلْطَانٍ يَتَخَذُونَهُ فَوْقَ قُوَّتِهِمْ وَهُوَ يَذْهَبُ بِكُلِّ فَرِيقٍ إِلَى التَّعَصُّبِ لِمَا وَجَّهَ إِلَيْهِ وَفِي ذَلِكَ فساد نظامهم كما لا يخفى أما اعتقاد جميعهم بالله واحد فهو توحيد ملنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه وفي ذلك نظام أخوتهم وهي قاعدة سعادتهم وإليها ما لهم فيما اعتقد (١) وإن طال الزمان فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه النبوة تحدد أنواع الأعمال التي تناط بها مساعدة الإنسان في الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه فوجوب عمل من الأمور به أو الندب إليه وحظر عمل أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي

(١) كان المؤلف رضي الله عنه يعتقد أن إرقاء الأمم من طريق علوم الكون سيتهي بهم إلى التوحيد وسائر ما قرره القرآن من أصول الدين (٤١ : ٥٣) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ٥٤ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط)

حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية وهو لا ينافي أيضا أن يكون المأمور به حسنا في ذاته بمعنى أنه مما يؤدي الى منفعة دنيوية او اخروية باعتبار أثره في احوال المعيشة أو في صحة البدن او في حفظ النفس أو المال او العرض أو في زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه كما هو مفصل في الاحكام الشرعية. وقد يكون من الاعمال مالا يمكن درك حسنه ومن المنهيات مالا يعرف وجه قبحه وهذا النوع لاحسن له الا الامر ولا قبح الا النهي والله أعلم

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامه بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه مالا غنى له عنه كما وفي غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود. والكلام في هذا البحث من وجهين (الاول) وهو أيسرها على المتكلم وجهه ان الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد ان الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بنوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أمهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لاحكامه في (٥ رسالة التوحيد)

فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفي تقاؤص فعال وخلائق ينهاهم عنها - وان يعتقد وجوب تصديقهم في انهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه - وأن يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والاحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها وان هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق - وان يؤمن بانهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية وان هذا الامر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه فتمت ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في اقوالهم واماتهم في تبليغ ما عهد اليهم ان يبلغوه وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبوعه الابصار وتنفر منه الاذواق السليمة وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة وأن ارواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر افراده يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام ويمرضون

وتمتد اليهم ايدي الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتل الانبياء المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف في اليجاد مما لم يقم دليل على استحالة بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لما تمتع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الالتلاف . فان قيل ان ذلك لا بد ان يكون تابعا لنا موسى آخر طبيعي قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما في الامر أننا لانعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه ان يحدث الحادث على أي هيئة وتابعا لأي سبب اذا سبق في علمه أنه يحدثه كذلك المعجزة لا بد ان تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبي يستند اليها في دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له في تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله (١) فتي ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى

(١) يشير المصنف الى ان دلالة المعجزة وضعية لانها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور . وقيل عقلية وقيل عادية

النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقاً لمن ظهرت على يده
وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله فان سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الاجسام
والجسمانيات فهي لاتعلو عن تناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء
أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلا أنهم لو انحطت فطرهم
عن فطر أهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس آخر؟ أو مس
عقولهم شيء من الضعف لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الالهي الذي
يفوق كل اختصاص: اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه.
ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمراهم حجة للمنكر
في انكار دعواهم، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم
ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم. والامر كذلك
لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام.
أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في
التشريع فجوزة بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل أن النبي
صلى الله عليه وسلم نهى عن تأيير النخل (١) ثم أباحه لظهور أثره في الإثمار
فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل
الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجار بهم ولا حذر عليهم
فيه مادامت الشرائع مرعية، والفضائل محمية، وما حكاه الله من قصة آدم

(١) تأيير النخل تلقينه والحديث في الصحيح

وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الاكل والمواخذة عليه . وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الارض يبنى آدم كأن النهي والاكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الانساني في الوجود والله أعلم ومن العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بمآذبه اليه الجمهور

❦ حاجة البشر الى الرسالة ❦

سبق لك في الفصل السابق ما يهيم الكلام عليه من الوجه الاول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل والكلام في هذا الفصل موجه ان شاء الله الى بيان الحاجة اليهم وهو معترك الافهام، ومزلة الاقدام، ومزدحم الكثير من الافكار والاهام، ولسنا بصدد الايتان بما قال الاولون، ولا عرض مآذبه اليه الآخرون، ولكننا نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد، والذهاب اليه من أقرب الطرق، من غير نظر إلى ما مال اليه المخالف، أو استقام عليه الموافق، اللهم الا إشارة من طرف خفي، أو إلماعا لا يستغني عنه القول الجلي

والكلام في بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان ﴿ الاول ﴾ وقد سبق الإشارة اليه يتبدى من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم، أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية، معقودان بأعمال المرء

في حياته الفانية ، سواء كانت تلك الاعمال قلبية كالا اعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليون وفلاسفة الا قليلا لا يقيم لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء ، وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وان اختلفت منازلهم في تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب الى ان التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو مابه شقوتها ، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية ، ألطف من هذه الاجسام المرئية ، وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الاخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديماً وحديثاً مما لا تكاد تحصى وجوهه هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الانفس عالمها وجاهلها ، وحشيتها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن ان يعدضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وانما هو من الالهامات التي اختص بها هذا النوع . فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقاءه في هذه الحياة الدنيا - وإن شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين

للارشاد في عمل ما أو الى أنه لا يمكن للعقل ان يوقن باعتقاد، ولا للفكر ان يصل الى مجهول، بل قالوا أن لا وجود للعالم الا في اختراع الخيال وانهم شاكون حتى في أنهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع. أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأُس البقاء الى الاجل المحدود - كذلك قد ألهمت العقول وأُشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو متتهى ما للانسان في الوجود بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حياً باقياً في طور آخر وان لم يدرك كنهه. ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء يُشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة، شبيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية، مهياة لدرجات من الكمال لاتحددها أطراف المراتب والغايات، معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الاهواء ونزوات الامراض على الاجساد ومصارعة الاجواء والحاجات، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد، ولا تنتهي عند حد، إلهام يلقها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للانواع انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء، ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف، فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات، وآلام ولذائذ وكلمات، لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات،

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدي وما عسى

أن تكون عليه ، متى وصلت اليه ، وكيف الاهتداء واين السبيل ، وقد غاب المطلوب واعوز الدليل ، شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة القصيرة الامل ، لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الاقوم ، بل لزمنا الحاجة الى التعليم والارشاد ، وقضاء الازمنة والاعصار ، في تقويم الانظار ، وتعديل الافكار ، واصلاح الوجدان ، وتثقيف الازدهان ، ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لا ندري متى نخلص منه ، وفي شوق الى طمأنينة لانعلم متى ننهي اليها

هذا شأننا في فهم عالم الشهادة فماذا نومل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب ؟ هل فيما بين ايدينا من الشاهد ، معالم نهتدي بها الى الغائب ، وهل في طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ما قدر له في حياة يشعر بها ، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها ، والشؤون التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه او الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤون ؟ هل في أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والاعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة اليك ؟ كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العاقل ، ومرامي المشاعر ، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت ، فالنظر في المعلومات الحاضرة ، لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية

أفليس من حكمة الصانع الحكيم، الذي أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم، الذي خلق الانسان، وعلمه البيان، وعلمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب النفس البشرية مرتبة يعدّها بمحض فضله، بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته؟ يميزهم بالفطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والامانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه، فيشرفون على الغيب باذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العاملين، نهاية الشاهد، وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفي على العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقد العباد فيه وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الآخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول أفهامهم، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم، وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الاعمال ما هو مناط سعادتهم وشقايتهم، في ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله، اللاصق علمه باعماق ضمائرهم في إجماله، ويدخل في ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من

الآيات حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الاقناع بصدق الرسالة، فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين؟؟

لا ريب ان الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كان صنعه، وجاد على كل حي بما اليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه، يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره، أن ينقذه من حيرته، ويخلصه من التخبط في أهم حياته، والضلال في أفضل حاله يقول قائل ولم لم يودع في الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية في الحياة الآخرة؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث، وهو النوع الانساني. ذلك النوع على ما به، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراد، وأن لا يكون كل فرد منه مستعد الكل حال بطبعه، وان يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال، فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

﴿ المسلك الثاني في بيان الحاجة الى الرسالة ﴾

يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه

أرتنا الايام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع الى بعض الغابات أو الى رؤس الجبال ويستأنس الى الوحش ويعيش عيش الاوابد من الحيوان يتغذى بالاعشاب وجذور النبات، ويأوي الى الكهوف والمغاور، ويتقي بعض العوادي عليه بالصخور والاشجار، ويكتفي من الثياب بما يخصف من ورق الشجر، أو جلود المالك من حيوان البر، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا. ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدُّبُر (١) وتعيش عيشة لا تنفق مع ما قدر لنوعها، وانما الانسان نوع من تلك الانواع التي غرز في طبيعتها أن تعيش مجتمعة وان تعددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه، والمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه، وأودع في كل شخص من أشخاصها شعورٌ ما بحاجة الى سائر أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد. وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة الى الاطالة في بيانه وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا في جملة ما وهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير

(١) الدبر بالفتح والكسر جماعة النحل وكذا الزناير

الماني في الالفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لا غنى لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرهما لا يشتبه فيه وكما كثرت مطالب الشخص في معيشتة ازدادت به الحاجة الى الايدي العاملة فتمتد الحاجة وعلى اثرها الصلة من الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع بأسره . وأيامنا هذه شاهدة على ان الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى . هذه الحاجة خصوصا في الامة التي حققت عنوانها لها صلات وعلاقات ميزتها عن سواها: حاجة في البقاء، حاجة في التمتع بمزايا الحياة، حاجة في جلب الرغائب ودفع المكارهِ من كل نوع

لو جرى أمر الانسان على اساليب الحلقة في غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفرادهِ، عاملٌ يُشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب، هي الدافع لكل من المتحايين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه في حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظ النظام الامم وروحاً لبقائها، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ماتحب فان اشتدت كانت ولعا وعشقا لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحايين إذا كانت

الحاجة الى ذات المحبوب أو ماهو فيها لا يفارقها، ولا يكون هذا النوع منها في الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا في روح المحبوب وشماله التي لا تفارق ذاته حتي تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لافي عارض يتبعه . فاذا عرض التبادل والتعاوض ولو حظ في العلاقة بينهما تحولت المحبة الى رغبة في الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمستفَع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة الخفاة أو الدهان والخديعة من الجانبين

يجب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه في سداد عوزة فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له فهو يتوقع فقدتها بفقدته فيحرص عليه حرصه على حياته ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ما عادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضها واندفع الى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لان الالهام الذي هدي به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءها مذهب ، فلحاجته في سد عوزة ، هي حاجته الى القائم بأمره ، فيجبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض في الخدمة

أما الانسان وما أدراك ماهو فليس أمره على ذلك ، ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعي في اطلاق

مداركة عن القيد ومطالبه عن النهايات، وتسليمه على صغره، الى العالم
 الا كبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله وهي غير محصورة، حتى
 يعتصر منه منفعه وهي غير محدودة، وايداعه من قوى الادراك والعمل
 ما يعينه على المغالبة، ويمكنه من المطالبة، بسعيه ورأيه، ويتبع ذلك أن
 يكون له في كل كائن مما يصل اليه لذة، وبجوار كل لذة ألم ومخافة، فلا
 تنتهي رغبته الى غاية، ولا تقف مخاوفه عند نهاية، (١٩:٧٠) إن الانسان
 خلق هلوياً ٢٠ اذا مسه الشر جزوعاً ٢١ واذا مسه الخير منوعاً (تفاوتت
 أفراده في مواهب الفهم، وفي قوى العمل وفي الهمة والعزم، فمنهم المقصر
 ضعفاً أو كسلاً، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعاً، يرى في أخيه أنه العون
 له على ما يريد من شؤون وجوده، لكنه يذهب من ذلك الى تخيل
 اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده، ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من
 ثمار عمله، وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل، ويرى الخير في أن
 يقيم مقام العمل، أعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل، ليتمتع،
 وان لم ينفع، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له ان لاضير عليه لو انفرد
 بالوجود عن يطلب مغالته، ولا يبالي بارساله الى عالم العدم بعد
 سلبه، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة او الوصول الى لذية
 فتح له الفكر باباً من الحيلة، او هياً له وسيلة لاستعمال القوة، فقام
 التناهب، مقام التواهب، وحل الشقاق، محل الوفاق، وصار الضابط
 لسيرة الانسان إما الحيلة واما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس في اللذائذ الجسدانية وتجادل افراده طمعا في وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية ؟ كلا ولكن قدر له ان تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همهم ان يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن يجمعه معهم جامعة ما حسبا يتمداليه نظره . وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الانفس كادت تغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول اليها من الارواح مكانا كاد لا تصعد اليه سائر اللذات ، وهي من افضل العوامل ، في احراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الافراد والامم لو صرفت فيما سقت لاجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للاسباب التي اشرنا اليها من التفاوت في مراتب الادراك والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته في القلوب بإخافة الامن ، وإزعاج الساكن ، واشعار القلوب رهبة المخافة ، لاتهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا ان يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا في الاعمال ؟ أو لا تكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا في تفانيهم ؟ لاريب ان البقاء على تلك الاحوال ، من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الانساني في حفظ بقائه من المحبة او ما ينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة الى العدل وظنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة ان العدل نائب المحبة . نعم لا يخله

القول من حكمة ولكن من الذي يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها؟ قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكور والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة، وفيها مستقر السكينة، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم، وقوة العقل وأصالة الحكم، تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات، وتعلو بهم فوق ما تخليه المخاوف، فيعرفون لكل حق حرمة، ويميزون بين لذة ما يفي، ومنفعة ما يبقى، وقد جاء منهم أفراد في كل أمة، وضعوا أصول الفضيلة، وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته، وتسوء عاقبته، وهو ما يجب اجتنابه، وإلى ما قد يشق احتماله، ولكن تسر مغباته، وهو ما يجب الأخذ به، ومنهم من انفق في الدعوة إلى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم، فهو لاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافي الحق ظاهره، ولكن هل سمع في سيرة الإنسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراد أو الغالب منهم لرأي العاقل لمجرد أنه الصواب؟ وهل كفى في إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعوههم إليه؟ وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء، وأجل من ضرورة المحبة للبقاء؟ كلا لم يعرف ذلك في تاريخ الإنسان ولا هو مما ينطبق على سنته

فقد تقدم لنا أن مهيب الشقاء هو تفاوت الناس في الإدراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقول ، والتقارب في الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل ، إلا كما يعرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن في مرتبتك من العقل ، لم يذق مذاقك من الفضل ، فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعاً ولا يرد طمأنينة . وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها فيذهب بالناس مذهب شهواته فنذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ويفقد ما قصد بوضعها

أضف الى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الالهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية واشد لزوما لها: كل انسان مهما علا فكره ، وقوي عقله ، أو ضعفت فطنته ، وانحطت فطرته ، يجد من نفسه انه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوهه ربما لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرف اليها إرادة المختارين ، تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ولا سبيل لها الا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر . فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبه الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من

تبدت له آثار قوى مختلفة، في أنواع متفرقة، تماثل في أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الانواع فجعل لكل نوع إلهاً. ولكن كعلامق الوجدان، واطقت الازهان، ونفذت البصائر، ارتفع الفكر وجلت النتائج، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود. غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه، فلم يسلم من الخبط فيه، ثم لم يكن له من الميزة الفاتنة في قومه، ما يحملهم على الاهتداء بهديه، فبقي الخلاف ذائعا، والرشد ضائعا، اتفق الناس في الازعان لما فاق قُدرهم، وعلامتناول استطاعتهم، لكنهم اختلفوا في فهم ما تلجهم الفطرة الى الازعان له اختلافا كان أشد أثرا في التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش في جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الالهام الهادي الى ما يلزم لذلك وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ولم يفيض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وانما ألقى به في مطارح النظر تحمله الافكار في مجاريها وترمي به الى حيث يدري ولا يدري وفي كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده، فهل مني هذا النوع بالنقص ورزى بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل

الوجود؟ نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه الانسان عجيب في شأنه: يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت، ويسامي بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الاعظم، ثم يصغر ويتضاءل وينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه، ولم يدرك منشأه، ذلك لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين، من ذلك الضعف قيد الى هداة، ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف سعادته، أكمل الواهب الجواد مجلته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أن ينقص من أفرادهِ وكما جاد على كل شخص بالعقل المصروف للحواس لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي من الحر والبرد جاد على المجلة بما هو أوسع بالحاجة في البقاء، وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء، واحفظ لنظام الاجتماع، الذي هو عماد كونه بالاجماع، من عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التي أقفرت منها، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفرادهِ مرشدين هادين وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيد ذلك زيادة في الاقتناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويذل الجامح، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشدِهِ، وينبهر لها بصم

الجاهل فيترد عن غيه، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته، فيحيطون العقول بالامندوحة عن الاذعان له، ويستوي في الركون لما يحيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الانبياء والمرسلون = فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متمات كون الانسان ومن أهم حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وستكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحي

الكلام في امكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصوير المعنى الذي يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ولا يعيننا ما تثيره الالفاظ في الازهان ولذا كرر من اللغة ما يناسبه . يقال وحيت اليه وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما ألقىته الى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقى الى الانبياء من قبل الله . وقيل : الوحي إعلام في خفاء . ويطلق ويراد به الموحي . وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه

على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة . والاول بصوت يتمثل لسمعه (١) أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجودان الجوع والعطش والحزن والسرور . أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهم على أن لا تفهم . نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم الى ما وراء سواحل اليقين فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الإشارة اليه فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسبون العقل وشؤونه وسره ومكنونه ويجدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الاوامر والنواهي بل عن محابس الحشمة التي تضمهم الى التزام ما يليق وتجزهم عن مقارفة ما يليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان . فاذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والاديان وهم من أنفسهم هامّ بالاصغاء

(١) كصلة الجرس أو كلام الملك كما ورد في الحديث الثاني

من صحيح البخاري اه من هامش نسخة المؤلف

دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر وانصرفوا عنه وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخاطب الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة وتتبعها الشريعة فيحرموا لذة مذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو مرض في النفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت أي استحالة في الوحي وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر وما نح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الاجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه . ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرق منه ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك الى مالا يحصره العدداً من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريباً فيسعى اليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايتها ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذي لا ينزع ، والظاهر الذي لا يجاد ، فاذا أنكره منكر ثار واعليه ، ثورتهم في بادئ الامر على من دعاهم اليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة الى اليوم

فاذا سلم « ولا محيص عن التسليم » ما اسلفناه من المقدمات فمن

ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها
 ان لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل
 الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهي لان تتصل بالافق الاعلى،
 وتنتهي من الانسانية الى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان،
 ما لم يصل غيرها الى تعقله او تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى
 عن العليم الحكيم، ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم،
 ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت، ودعوة الناس الى ما حملت، على
 ابلاغه اليهم وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان على
 حسب الحاجة: يظهر برحمته من يختصه بعنايته، ليفي للاجتماع بما يضطر
 اليه من مصلحته ، الى ان يبلغ النوع الانساني أشدّه ، وتكون الاعلام
 التي نصبها لهدايته الى سعادته كافية في ارشاده، فتختم الرسالة، ويغلق
 باب النبوة ، كما سنأتي عليه في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

أما وجود بعض الارواح العالية - وهم الملائكة المكرمون -
 وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية فما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من
 انفسنا وارشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتغال الوجود على ما هو أطف
 من المادة وان غيب عنا فاي مانع من ان يكون بعض هذا الوجود
 الاليف مشرقا لشيء من العلم الالهي وأن يكون لنفوس الانبياء اشراف
 عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته

أما تمثل الصوت وأشباح تلك الارواح في حس من اختصه الله

بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصايين
بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في
خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله انه يرى
ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع فان جاز
التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها الا في النفس، وان ذلك يكون عند
عروض عارض على المخ، فلم يجوز تمثيل الحقائق المعقولة في النفوس
العالية وأن يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس، وتتصل بحظائر
القدس، وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة
لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم؟ وغاية ما يلزم عنه أن
يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من
سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لأن شأنهم في الناس أيضا غير
الشؤون المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على
رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن
أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وان ضعف العزائم والعقول يتبدل
بالقوة في امهم التي تأخذ بمقالهم، ومن المنكر في البديهة أن يصدر
الصحيح من معتل، ويستقيم النظام بمختل

أما أر باب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن
مراتبهم من مراتب الانبياء، ولكنهم رضوا ان يكونوا لهم أولياء، وعلى
شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الانس، بما يقارب تلك

الحال في النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم . ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحراف ، ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجبه الذوق السليم ، واندفاعهم بياعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتلائي في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء ما لهم ، وما ل من غرروا به ولا يكون لهم الا سوء الاثر في تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزوا بهم . الا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخيثة كشجرة خيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار = فلم يبق بين المنكرين لأحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بإمكان ما أنبؤا به بل وبوقوعه الاحجاب من العادة ، وكثيرا ما حجب العقول حتي عن ادراك أمور معتادة

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكي عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله ويصبر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان ، ما يغنيه

عن البيان، كما سلف في الوجه الأول من الكلام على الرسالة. أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين في علم آخر رواية خبر عن مشهود (١) من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالأخبار بوجود مكة أو بأن للصين عاصمة تسمى «بكين» وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوي عن التشيع لمضمون الخبر

لأن نزاع بين العقلاء في أن هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين بالخبر به وانما النزاع في اعتبارات تتعلق به. ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى. وما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالاقوى سلطانا ولا بالاكثر مالا ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه وغاية الامر أنهم لم يكونوا من الادين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الانظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم وادّعوا انهم يبلغون عن خالق السموات والارض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغرت

(١) قوله المشهود خاص يراد به العام وهو المحسوس كإخبار من

سمعوا قولاً بأنهم سمعوه ومنه تواتر القرآن والاخبار

دونه قوة المعارضة ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر
 وكان الخير لأمرهم في اتباع ما جاؤا به . حالقتهم القوة واحتضتهم
 السعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغلبهم الشقاء ما انحرفوا
 عنها وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدي لا يصح معه
 في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله ، ولا في دعواهم أنه
 كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس ، على أن من لا يعتقد ما يقول ، لا يبقى
 لمقاله اثر في العقول ، والباطل لابقاء له الا في الغفلة عنه ، كالنبات الخبيث
 في الارض الطيبة ينبت باهمالها ، وينمو باغفالها ، فاذا لامستها عناية الزارع
 غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك
 الانبياء قامت في العالم الانساني ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه
 مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالين ، فلا يمكن أن يكون
 أسسها الكذب ودعامتها الخيلة ، وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح
 دائما في خلال ما ألحق بها المبتدعون ، أما بقية الرسل ممن يجب علينا
 الايمان بهم فيكفي في إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه
 وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به . وسنأتي على الكلام
 في رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في باب على حدته إن شاء الله

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم في حاجة العالم الانساني الى الرسل أنهم من الامم

بمنزلة العقول من الاشخاص وان بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية
قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من واهب الوجود ميز
بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه، ولكنها حاجة روحية وكل
مالامس الحس منها فالتقص في الوجود وتطيرها من دنس الاهواء
الضالة وتقويم ملكاتها أو إيداعها ما فيه سعادتها في الحياتين. أما تفصيل
طرق المعيشة والخذق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى
درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات
فيه إلا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير ان
شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا في الاعتقاد بان للكون إلها واحدا
قادرا علما حكيما متصفا بما اوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة
الكائنات اليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته وانما تفاوتها فيما اختص
به بعضها من الكمال وشرطه ان لا ينال شيء من تلك الاعمال السابقة
أحدا من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام
عامة الامة على ما حدد في شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب ان يعرف من صفاته
ويبينون الحد الذي يجب ان يقف عنده في طلب ذلك العرفان (١) على
وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه (٢) ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من

(١) هو ان لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم (٢) لانه لا يصل الى
المستحيل الذي يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذي هو مشرق الايمان

القوة ، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الاعمال والمعاملات ، ويدكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوي ماضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعت مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تقوت به المنافع الخاصة ، (١) يعودون بالناس الى الالفه ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويلفتونهم الى ان فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة انفسهم ليستوطنوها (٢) قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرى كل حق الآخر وإن كان لا يفغل حقه ، وأن لا يتجاوز في الطلب حده ، وأن يعين قويمهم ضعيفهم ، ويمدغنيهم فقيرهم ، ويهدي راشدهم ضالهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم ان يردوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذي تهدرله ، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذي يبيع تناوله ، واحترام الاعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع ، ويشرعون لهم مع

ذلك ان يقوموا انفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود (١) والرحمة بالضعفاء، والاقدام على نصيحة الاقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء (٢)

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، الى طلب الرغائب السامية ، آخذين في ذلك كله بطرف من الترهيب والترهيب والانذار والتبشير حسب أمرهم الله جل شأنه

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم، وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون ببيانهم بنيا الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع في محظوراته. يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به (٣) مما لو صعب على العقل اكتناؤه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس وتلج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر، انتظارا لجزيل الاجر، أو إرضاء لمن بيده الامر، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الانساني (٤) لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم

(١) ومنها المعاهدات الدولية مع الاجانب (٢) اي لا فرق بين مسلم وكافر في ذلك (٣) كالملائكة والجن واحوال الآخرة (٤) يعني مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضوية بأنواعها واوربا كلها في حيرة من تلافي هذا الامر ولا تمكن ملاقاته الا بالدين الاسلامي الذي فرض الزكاة وامر بالصدقة وهدى النفوس الى الرضى بما قسم لها طلبا لسعادة الآخرة مع بذل الجهد في السعي

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات
فليس مما جاؤا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان
ما اختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الارض، ولا مقادير
الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج اليه النباتات في نموها، ولا ما تقتدر اليه
الحيوانات في بقاء اشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم،
وتساقبت في الاصول الى دقائقه الفهوم، فان ذلك كله من وسائل
الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من
الادراك يزيد في سعادة المحصلين، ويقضي فيه بالنكد على المقصرين،
ولكن كانت سنة الله في ذلك ان يتبع (١) طريقة التدرج في الكمال وقد
جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعي فيه وما يكفل التزامه
بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء
أما ما ورد في كلام الانبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا في أحوال
الافلاك او هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على
حكمة مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك اسراره وبدائعه. وحالهم
عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والا
ضاعت الحكمة في ارسالهم ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق الى العامة،
بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ماوجه الى الخاصة، يحتاج
الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة، وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم

على كل حال لا يجوز ان يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب ان يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان، مطالبا لها باحترام البرهان، فارضا عليها ان تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين

﴿ اعتراض مشهور ﴾

قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكما لا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخرية فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كل يستعد للوثبة، ولا ينتظر الى مجي النوبة، حشو جلودهم الظلم، وملء قلوبهم الطمع، عد اهل كل دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل اهل الدين الواحد قد تشق عصاهم وتختلف مذاهبهم في فهمه، وتتفارق عقولهم في عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر، وتشبث أهواؤهم بالفتن، فيسفكون دماءهم، ويخربون ديارهم، الى ان يغلب قويمهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين. فها هو

الدين الذي تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا في الشقاق ومضرما للضعينة فما هذه الدعوى وما هذا الاثر؟؟

تقول في جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء واتقضاء عهدهم ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه أو يفهمه يغلو فيه أولا يغلو فيه ولكن لم يتمزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم والافقل لنا أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم، والفيض الاعم، ولم يكن دينه وافيًا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها، في أفرادها وجمعتها؟ أظن أنك لا تخالفنا في أن الجمهور الاعظم من الناس بل الكل إلا قليلاً لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق ارسطو بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بهامعبر لما أدركوا منها إلا خيالاً لا أثر له في تقويم النفس، ولا في اصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفسك واعظا بينها، في تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها، فأى الطرق أقرب اليك في مهاجمة شهواتهم وردّها الى الاعتدال في رغائبها؟ من البديهي أنك لا تجد الطريق الاقرب في بيان مضار الاسراف في الرغب، وفوائد القصد في الطالب، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل

النظر . وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتي اليه من نافذة الوجدان المظلة على سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرته الله الذي وهبه ما وهب ، الغالب عليه في ادنى شؤونه اليه ، المحيط بما في نفسه ، الآخذ بأزمة هممه ، وتسوق اليه من الامثال في ذلك ما يقرب إلى فهمه ، ثم تروي له ما جاء في الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله عنه إذا استقام ، وسخطه عليه إذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذي الغضب ، وتحمدا الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله الا أنه يرضي الله وأوليائه اذا أطاع ، ويسخطهم اذا عصي ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابره وحاضرهم ، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم ، كم سمعنا أن عيوناً بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوباً خشعت لو اعظ الدين . لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟ متي سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم ، لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ، هذا أمر لم يعهد في سير البشر ولا ينطبق على فطرهم ، وإنما اقوام الملكات هو العقائد والتقاليد (١) ولا قيام للامرين إلا بالدين فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانها على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم

قلنا ان منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلك ، بل نصدق الى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ، ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردى في هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه . يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجأ وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء ويعلم ذلك الباغي في رأيه من أهل الشر ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتمح المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ، ولكن وقوع هذه الامثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لاجله . كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء ، فالدين هاد والنقص يعرض لمن دُعوا إلى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم اليه (٢٦: ٢) يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين)

ألا إن الدين مستقر السكينة ، ولجأ الطائنة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة في الكون ، وبه ينظر الانسان الى

من فوقه في العلم والفضيلة ، والى من دونه في المال والجاه ، اتباعاً لما وردت به الاوامر الالهية . الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية ، منه بالدواعي الاختيارية ، الدين قوة من أعظم قوى البشر وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ماوجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه ، الناصيين أنفسهم منصب الدعوة اليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة احكامه ، وماعليهم في ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ، ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الاولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع قترجع اليه قوته ، وتظهر للاعنى حكمته

ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأي القائلين بإهمال العقل بالمرّة في قضايا الدين وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول لو كان الامر كما عساه أن يقال لما كان الدين علماً يهتدى به وانما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد إلهي كما لا يستقل الحيوان في إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلاً (١) كذلك الدين هو حاسة عامة

(١) قال المؤلف في الدرس : هذه القضية مهمة تصدق بالبعض فلا يناقضها ان بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج الى إدراكه

لكشف ما يشبهه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال . كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر في أدلتها ، ليصل منها الى معرفتها ، وانها آية من قبل الله ، وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وان لم يستطع الوصول الى كنهه بعضه والنفوذ الى حقيقته ، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد فان ذلك مما تنزه النبوات عن أن تأتي به فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً بيقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه وفي التفويض إلى الله في علمه وفي سلفنا من التاجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثاني

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلّم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم

وتخفف من أبصارهم (١) المعقودة بعنان السماء، الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء، والى نار تنقض من سماء الحق على أدم النفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الابطال القاتلة للعقول، وصيحة فصحي تزعج الغافلين، وترجع بألباب الداهلين، وتنبه المرؤسين الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين، والقادة الغارين، وبالجملة تؤب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التي سنّها الله له « انا هدينه السبيل » (٢) ليبلغ بسلو كما كماله، ويصل على نهجها الى ما أعد في الدارين له، ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف :

كانت دولتا العالم (٣) دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب في تنازع وتجادل مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الاحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفة واليفن في الملاذ بالغة حد ما لا يوصف في

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف في الدرس .
وكذلك قوله « والى نار » وقس على ذلك (٢) قل المؤلف في الدرس : المراد بالسبيل والطريق هو فطرة الله التي فطر الناس عليها (٣) بيان للكلمة التي استعارها من التاريخ . قال في الدرس وفاتي وقت الكتابة ذكر دولة الصين فانها كانت أيضا ممزقة بالحروب الاهلية ومع الترمكان وسند كرها في طبعة ثانية .

قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل أمة. وكان شره هذه الطبقة من الامم لا يقف عند حد فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على مافي أيديها من ثمرات أعمالها، وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل، في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعبين يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر اليها من ذوي الالباب، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم، وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجاوات مع من يقتنيها. ضلت السادات في عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها، ولكن بقي لها من قوة الفكر أرداداً بقاياها، فلم يفارقها الخذر من أن بصيص النور الالهي الذي يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلاف التي احاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التي أسدت على العقول، فتهتدي العامة الى السبيل، ويثور الجمل الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشؤا سحبا من الاوهام، ويهيؤا كسفاً من الاباطيل والخرافات، ليقذفوا بها في عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم. وصرح

الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل، وعدو كل ما يثمره النظر، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس. وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب، ومدد لا ينفد

هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم، وذلك كان شأنهم في معاشهم، عبيد أذلاء، حيارى في جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية، والشرائع السابقة، آوت الى بعض الازدهان ومعها مقت الحاضر، وتقص العلم بالغابر، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع، وانعكس من الطبع، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة، والشره حيث تنتظر القناعة، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام، مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين. فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشرعية معاً، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة، وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات، خاضعة للشهوات، فخر كل قبيلة في قتال اختها، وسفك دماء أبطالها، وسبي نساءها وسلب أموالها، تسوقها المطاعم، الى المعامع، ويزين لها السيآت، فساد الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها، وبلغوا من تضعف الاخلاق وهنأقتلوا به

بناتهم تخلصا من عارحياتهن ، أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغا يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت رُبُط (١) النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يمكنه من كشف تلك الغم ، التي أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الامر من قبل ومن بعد

في الليلة الثانية عشرة (٢) من ربيع الاول عام الفيل « ٢٠٠١ بريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيما توفي والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج (٣) وجارية ويرى أقل من ذلك . وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصية قومه كاحدهم على مابه من يتم فقديه الابوين

(١) جمع رباط وهو مايربط به (٢) هذا هو المشهور الذي عليه الناس في تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوي وهو أحد الأقوال والاصح عند المحدثين انه ولد في الليلة التاسعة منه (٣) قيل خمس وقيل تسع

معاً وفقير لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مذهب ، ولم يُعَنِّ بتتقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الاوهام ، وأقرباء من حفدة الاصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين . أدب الهنيء لم يجز العادة بأن تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصاً مع فقر القوَّام ، فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والناس منحطون ، موحداً وهم وثنيون سلماً ، وهم شاغبون ، (١) صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا استاذ ينبهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده ، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (٢) ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضت

(١) استشهد المؤلف له في الدرس بقصة اختلاف القبائل في

وضع الحجر الاسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون واصلاحه بينهم

(٢) كأمية بن أبي الصلت وعمر بن نفيل

إليه الوثنية من مبدئ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله « ووجدك ضالاً فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاش لله إن ذلك لهو الالف المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما هُدىوا إليه من اتقاد الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيئاً من المال يسد حاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها، وبما اختارته بعد ذلك زوجها لها، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له، وعون على بلوغه ما كان عليه أعظم قومه، لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه النفس من نعيمها، بل كلما تقدمت به السن، زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة، ونما فيه حب الافراد والانتقطاع إلى الفكر والمراقبة، والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه، ونجاة العالم من الشر الذي تولاه، إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحته إليه الالهام الإلهي، وتجلي عليه النور القدسي، وهبط عليه الوحي من المقام العلي، في تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آباءه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم : جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومتجعججهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج عبد المطلب في بعض قریش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال هي أن ترد اليّ مائتي بعير أصبتها لي . فلامه الملك على المطلب الحقيق ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه أنارب الابل أما البيت فله رب يحميه . هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام — وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قریش — فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة ، أو يرقى به الى مقام مآين الخاصة ،

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ، ما الذي أعلى رأسه على الرؤوس ، ما الذي سما بهيمته على الهمم ، حتى اتدب لارشاد الأمم ، وكفالاته لهم كشف الغمم ، بل وإحياء الرمم ؟ ؟ ما كان

ذلك الا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ومصالح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك الا وجدانه ريح العناية الالهية تنصره في عمله ، وتمده في الانتهاء الى أمله ، قبل بلوغ أجله ، ما هو الا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو الا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي . أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة الى التوحيد ، والاعتقاد بالعليّ المجيد ، والكل ما بين وثنية مفارقة ، ودهرية وزندقة

نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبد معبوداتهم ، وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم — وفي الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الاكون ورد كل شيء في الوجود اليه — أهاب بالطيعين ليمدوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنبؤوا سر الوجود الذي قامت به — صاح بذوي الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة في الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم — تناول المتحليين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى فين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي ان نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين لهم ، وطلبهم بالتزول عما اتحلوه لانفسهم من المكنانات الربانية ، الى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل

ذي نفس انسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة — وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا اغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل ، وقطعتهم دون الامل — مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغاوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها ، اتباعا لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم — وفتت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم ، وانهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الاكوان ، وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد الا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرقهم بالدليل كما كان الشأن في معرقهم لمبدع الكائنات أجمع ، والحاجة الى أولئك المصطفين انما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده وقرر أن لاسطان

لاحد من البشر على آخر منه الا مارسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة — دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح وانه بذلك من عالمين متخالفين ، وان كان متمزجين ، وانه مطالب بخدمتهما جميعا وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق — دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة ، والاخلاص للعباد ، في العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة . كل هذا كان منه والناس احياء ما ألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ، ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواله أعداء انفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عَقِدَتْ اهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة ، وحبُجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم ، والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبور ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أوأب

حكيم في تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رءوف بهم في شدته، رحيم في سلطته ،

ما هذه القوة في ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؟ ما هذا العلم في تلك الامية؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟ إن هو الاخطاب الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ، ذلك خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة ، بريئا من التهمة ، لا يتأنه على غير المعتادين خلقه .

أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ : أمي قام يدعو الكاتين الى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليحصوا ما كانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشئ بين الواهين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها،

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملمج؟ أقول ما هذا بشرا إن هذا الاملك كريم؟ لالا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره

الله أن يصف نفسه: إن هو إلا بشر مثلكم يوحي إليه . نبي صدق
 الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير
 الحواس أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ،
 واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة
 الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي
 لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق اليه الرية أن النبي صلى الله عليه
 وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا وتواترت أخبار الام كافة
 على أنه جاء بكتاب قال انه انزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب
 في المصاحف المحفوظ في صدور من عُنِيَ بحفظه من المسلمين الى اليوم .
 كتاب حوى من أخبار الام الماضية ، ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة
 والمستقبله ، نقب على الصحيح منها ، وغادر الا باطل التي ألحقها الاوهام
 بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها ، حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا
 من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أمهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم ،
 المعتقدون برسالاتهم ، آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من
 عقائدهم ، وما خلطوا في احكامهم ، وما حرفوا بالتأويل في كتبهم ، وشرع
 (٨ رسالة التوحيد)

للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد مآقره ، ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح الذي أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الأمم . ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الأهم ، انصرفوا في السبيل الأم ، نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على أنه أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب . وانفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل وتأنج الفطنة والذكاء ، هو الغلب في القول والسبق الى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الإذعان من العقول ، وتفاينهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة في بيانه تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبا وبعيدا لا بطل دعواه ، وتكذيبه في الاخبار عن الله ، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان الى منوائته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعتة ، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته ، وانهاؤا بقواهم عليه ، استكباراً عن الخضوع له ، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية

القرآن - العجز عن معارضته . صدقه في اخبار الغيب ١١٥

لعقائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم الى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تحقق مثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالآيات بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله ، وكان في استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاؤا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي ، ولجأ القوم في التعدي ، أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخفية ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلي على جميع الاحكام ، أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على انه ليس من صنع البشر ، وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي ، والحكم الصادر عن المقام الرباني ، على لسان الرسول الامي ، صلوات الله عليه

هذا وقد جاء في الكتاب من اخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر في قوله (٢: ٣٠) غُلِبَتِ الرُّومُ في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سَيْفُ بِلِسُون ، (في بضع سنين) وكالوعد الصريح في قوله (٥٥: ٢٤) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية . وقد تحقق جميع ذلك . وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام على الغيب

فيه ماجاء في تحدي العرب به واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن
يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد
اطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع ارجائها ،
ومع انه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها والتعرف
برجالها ، وقصور العلم البشري عادة عن الاحاطة بما اودع في قوى امة
عظيمة كالامة العربية . فهذا القضاء الحاتم منه بانهم لن يستطيعوا أن
يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا . ومن الصعب بل
من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي
شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل ان الارض لا
تخلو من صاحب قوة مثل قوته ، وانما ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير
هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما
استنهضهم له ، وبلوغ ما حثهم عليه

يقول واهم ان العجز حجة على من عجز فان العجز هي حجة الإفحام
والإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن
الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لا
يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل ، بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل
وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين
إعجاز القرآن وإفحام الدليل الا أنه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين
العجزين ، وبعدهما بين وجهتي الاستدلال فيهما ، فان إعجاز القرآن برهن

على أمر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة .
 وقلنا القوى البشرية لانه جاء بلسان عربي وقد عرف الكتاب عند
 جميع العرب في عهد النبوة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ،
 وحال القوم في العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء
 من مبلغ عقولهم ، فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة
 البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوى
 جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية ، وامتياز
 الكثير منهم بالعلم والدراسة ، دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد
 صدوره عن البشر ، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم
 ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما
 أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الامور التي
 لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن ، وانفساح
 الاجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ
 وينصح على العادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى ، وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي
 لا يعرض عليه التغير ، ولا يتناوله التبديل ، أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم
 رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسائله والاعتقاد بجميع ما ورد في
 الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة ، وقد
 جاء في الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقي علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامي وما دعا اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسري في كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامي أو الاسلام

هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم باختلاف، ولا اعتساف في التأويل، ولا ميل مع الشيع، وإني مجمل في هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد في التفويض لذوي البصائر أن يفصلوه، وما سندي فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدي الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه وأن لانسبة بينه وبينهم الا أنه موجودهم وأنهم له واليه راجعون « ١١٢: ١ قل هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ٤ ولم يكن له كفواً أحد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدن والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشبهوها في شيء منها، وإن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من

العالمين. وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده (١) بما شاء من علم وسلطان، على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال، على سنة له في ذلك سنهافي علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل، ولا يدنومنه التغير، وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لاحد بشيء من ذلك إلا يبرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين التقيضين أو ارتفاعهما معا أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا. وقضي على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون (٢) وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا الا يبرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب «١٦: ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون» (٣) والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها

(١) يعني الانبياء (٢) اشارة الى قوله تعالى «٢٦: ٢١ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون» (٣) قال المؤلف في الدرس: «لعل» في القرآن تعبر دائما عن الاستعداد أي جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر أو قال ليعدكم لشكرها بتحصيل جميع العلوم بها. أي وهذا ما خلقت لأجله بقرينة «لاتعلمون شيئا» قال والأفئدة العقول أين كان محلها أي سواء كان الدماغ أو القلب

لاجله — دل بمثل هذا على ان الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نضرفه في وجوهه بحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . وأما ما تتحير فيه مداركنا ، وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسطان يقهرها ، أو ناصري يمدحا فيما أدركا العجز عنه ، على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها ، وكان لا بد من الخضوع له ، والرجوع اليه والاستعانة به ، فذلك (١) إنما يرد الى الله وحده فلا يجوز أن تحشع لإله ، ولا أن تطمئن إلا إليه ، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة : لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ، ولا في غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل ، أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة ، تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة ، التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام ،

(١) قوله فذلك خبر قوله « واما ما تتحير » وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية في الكون هو مما أودع في غرائز البشر ولكن هذه القوة هي لله وحده فلا يجوز أن يتوجه الى غيره فيما هو غير معتاد من الاسباب المشتركة بين البشر ولو كانت نبياً أو ولياً

وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم «١» وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلا خالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين، وأبىح «٢» لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم (٦: ٧٩) اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض خفيًا وما أنا من المشركين (وما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول (٦: ١٦٢) ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي « ٣ » لله رب العالمين ١٦٣ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة بشرية « ٤ » ظن أنها شعبة من الارادة الالهية أو أنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو إرادة

(١) ذكر في الدرس هنا مفاسد المنتسبين لطرق الصوفية واختلافهم فليتذكر من يعلم (٢) عبر بأبيح للإشارة الى ان ذلك كان محظورا عند الامم السابقة فلم يكن يباح لاحدان يتوجه الى الله بدون واسطة الرئيس الديني فلم يكونوا حنفاء (٣) اي ان صلاتي وجميع عبادتي وحياتي وشؤونها ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده لا أتوجه فيه الى مرضاة غيره ولا استعين بأحد على شئ منه استعانة معنوية بل به وحده مهتديا بما شرعه من السنن والاحكام (٤) قال المؤلف كإرادة القديسين والكهنة الذين يأتي ذكرهم مرتبا

موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها، وافتكك عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء، والمتكهنه والعرفاء، وزعماء اليسطرة على الاسرار، ومتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد، وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين. صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا علي في الحق ولا وضع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، ولا يقر بهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم، وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم هذا خلصت أموال الكاسيين، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة، وكفت عنها أيدي العالة، وأهل البطالة، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته، لا بعمله وخدمته طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (٧: ٩٩) فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره^٨ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره * ٣٩: ٥٣ وأن ليس للانسان الا ما سعى) وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلاً وشراباً ولباساً وزينة، ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته، أو ما تعدى ضرره الى غيره، وحدد له في ذلك الحدود العامة، بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق

الهم في السعي حتى لم يعد لها عقبه تتعثر بها اللهم الاحقا محترما تصطدم به
أنهى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر، فبددت
فيآلقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت
ما كان له من دعائم وأركان «*» في عقائد الام

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نومة طال
عليه الغيب فيها، كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينة
من سدنة هياكل الوهم «نم فان الليل حالك، والطريق وعرة، والغاية
بعيدة، والراحلة كليلة، والازواد قليلة» علا صوت الاسلام على
وساوس الطغام، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر
على أن يهتدي بالعلم والاعلام، اعلام الكون ودلائل الحوادث وانما
المعلمون منبهون ومرشدون، والى طرق البحث هادون،

صرح في وصف أهل الحق بأنهم « ٣٩ : ١٨ الذين يستمعون

«*» ذكر المؤلف منها في الدرس ثلاثا: ١- احترام المرء لا بآئه

ومرّيه - ٢ - اعتقاده عظمة سلفه من رجال الدين - ٣ - الحذر من
إنكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه اذا حاول ان يخرج عما هم
عليه، اي فمن لم يحترم نفسه واستقلال فكره ويمرن نفسه على الأخذ
بما يعتقد انه الحق وان خالف الآباء والمعلمين والاحياء والاموات غير
المعصومين من الخطأ فلا يمكنه ان ينطلق من قيود التقليد. وسيأتي في
كلامه ما يهدم تلك القواعد والأركان

القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأملون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون ، صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وماتوارثه عنهم الابناء ، وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ، ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسمى لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل لللاحق من علم الاحوال الماضية والاستعداد للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التي ينفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم ، « ٣ : ١٣٧ فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء ، لن تضيق عن دائب ،

عاب أرباب الاديان في اقتفاءهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم ، وقولهم « ٣١ : ٢١ بل تتبع ما وجدنا عليه

آباءنا» «٢٢:٤٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون»
فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد
كان استعبده، وورده الى مملكته، يقضي فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع
في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته، ولا حد للعمل في منطقة حدودها؛
ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تمّ للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما
وهما استقلال الارادة واستقلال الرأي والفكر وبهما كملت له انسانيته
واستعد لان يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها
وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية في أوروبا
انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل، ولم تتحرك العقول
للبحث والنظر، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقاً في
تصريف اختيارهم، وفي طلب الحقائق بعقولهم، ولم يصل اليهم هذا النوع
من العرفان الا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح، وقرر ذلك
الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام، ومعارف المحققين
من أهله في تلك الازمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر
على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استثنائاً من أولئك الرؤساء
بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم
لنيل تلك الرتب المقدسة، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم ان يقرءوا قطعاً

من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمي اليه، ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم الا قليلا، ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال «٢: ٧٨» ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون» «٦٢: ٥» مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين» أما الاماني ففسرت بالقرآت والتلاوات أي لا يعلون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناء، واذا عن لا أحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف في التاويل وقال هذا من عند الله «٢: ٧٩» فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا» أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهي بن أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ، ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بانزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به: مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا

العناء والتعب وقصم الظهر، وانبهار النفس، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا في إسعادهم وهو التنزيل والشريعة، أصبح سببا في شقائهم بالجهل والغباوة، وبهذا التقرع ونحوه وبال دعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر في القرآن العزيز. فرض الاسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد مالا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات، ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات، جاء الاسلام والناس شيع في الدين، وان كانوا إلا قليلا في جانب عن اليقين، يتناذبون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون، فرقة وتحالف وشغب، يظنونها في سبيل الله أقوى سبب، أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصرحا لا يحتمل الرية بان دين الله في جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد. قال الله (١٩:٣) ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم *

٣:٦٧ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * ٢:٤١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه * ٣:٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا

بعضاً رباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وكثير من ذلك يطول ايراده في هذه الوريقات. والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته نص الكتاب على أن دين الله في جميع الازمان هو افراده بالرؤية والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه، مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول الى فهمه منه، والغرائم الى العمل به، وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الاقوال عند التناصف، وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته، ومتى روعيت حكمته، ولو حظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشرية، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها، وسار الكافة في مرشدهم إخواناً بالحق مستمسكين، وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاختلافات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقاً مع لاحقها، واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها، فصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان، ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان، وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدرج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً الى راشد في عقله، كامل في

نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله ، الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بان يكون شأن جملته في النمو قائماً على ماقررتة الفطرة الالهية في شأن أفرادها ، وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف اهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه ، في هم شاغل عما يلقي اليه فيما يصله بغيره ، اللهم الا يدا تصل الى فمه بطعام ، أو تسنده في قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان ، أو يرقى اليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سداجة السن لا يأتيه الا من قبل (٩ رسالة التوحيد)

ما يحسه بسمعه أو يبصره ، فأخذتهم بالآوامر الصاعدة ، والزواجر الرادعة ، وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم معقول المعنى جلي الغاية وإن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم الى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت ، وارتفعت وأنحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاتت من الايام آلاما ، وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الانفس بنفث الحوادث ، ولقن الكوارث ، شعوراً أدق من الحس وأدخل في الوجدان ، لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ، ويناجي المراحم ، ويستعطف الالهواء ، ويحدث خطرات القلوب ، فشرع الناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملة ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ، ويقتضي من صاحب الحق ، أن لا يطالب به ولو بحق ، ويفلق أبواب السماء ، في وجوه الاغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسن للناس سننا في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه ، وما دعاهم اليه ، فلا تقي من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من امراضها ، ثم لم يمس عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتمالها ، وضاعت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ باقواله ، ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه

ضرب من الحال، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان، ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال، وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الابطيل، هذا كان شأنهم في السجيا والاعمال: نسوا طهارته، وباعوا نزاهته، أما في العقائد فنفروا شيعا، وأحدثوا بدعا، ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها، وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان، والحظر على الافكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم، ولم يكف الذهاب الى ذلك أن يأخذ به نفسه، بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة، وافضى الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العام الانساني، وهي نزعة الحرب بين أهل الدين، للإلزام ببعض قضايا الدين، فتقوض الاصل، وتخرمت العلائق بين الاهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام، وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

كانت سن الاجتماع البشري قد بلغت (١) بالانسان أشده، وأعدته

(١) ذكر الاستاذ الامام ضمير السن هنا وفي تفسير جزء عم سهوا ثم انه تنبه لكون السن مؤنثة فأمر بتصحيحها في جزء عم بعد طبعه وكأنه نسي تصحيحها هنا فصحيحها اتباعاً لتصحيحه هناك وان كان التأنيث مجازيا

الحوادث الماضية إلى رشد، فجاء الاسلام يخاطب العقل، ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والاحساس في ارشاد الانسان إلى سعادته الدنيوية والاخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه ما اختلفوا فيه، وبرهن على أن دين الله في جميع الاجيال واحد، ومشيتته في إصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة على الاشباح، انما هو تجديد الذكري في الارواح، وأن الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب، وطالب المكلف برعاية جسده، كما طالبه باصلاح سره، ففرض نظافة الظاهر، كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الامرين طهرا مطلوبا، وجعل روح العبادة الاخلاص، وان ما فرض من الاعمال، انما هو لما أوجب من التحلي بمكارم الاخلاق (٤٥: ٢٩) ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر * ١٩: ٧٠ ان الانسان خلق هلو عاً ٢٠ اذا مسه الشر جزوعاً ٢١ واذا مسه الخير منوعاً ٢٢ الا المصلين) ورفع الغني الشاكر، الى مرتبة الفقير الصابر، بل ربما فضله عليه، وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة، وصرح بما لا يقبل التأويل ان في ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا وصول الى خير العقبى، الا بالسعي في صلاح الدنيا التفت الى أهل العناد فقال لهم (٢: ١١١ و ٢٧: ٦٤ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما عزعوا من أصول اليقين، ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المين، ولم يقف في

ذلك عند حد الموعظة بالكلام، والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن، ومن المعلوم أن المحاسنة هي رسول المحبة، وعقد اللفة، والمصاهرة إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف، وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهي على غير دينه . قال تعالى (٣٠ : ٢١ خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عن من يدخل في ذمتهم من غيرهم، كما يدافعون عن أنفسهم، ونص على أن لهم مالتا وعليهم ما علينا، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعداء الجزية (*) عن كل اكراه في الدين، وطيب قلوب المؤمنين في قوله (١٠٥ : ٥) يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم

(*) فيه ان النهي عن الاكراه في الدين نزل قبل سورة براءة التي شرع فيها أخذ الجزية فلا اكراه في الدين ممنوع في الاسلام مطلقا ولكن اذا اراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم او تهديدهم لدعوتهم مثلا وجب عليهم ان يدعوهم اولا الى الاسلام بالاختيار فان أسلموا حرم قتالهم وان لم يسلموا دعوههم الى اداء الجزية ان كانوا من اهلها كأنهم يقولون لهم انكم ألجأتمونا الى حربكم فنحن تقدم عليه إلا ان تساموا وتؤدوا الجزية . وهذا لا يمنع من الصلح اذا اتفق عليه الفريقان

لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي ضرب من ضروب القوة في الحمل على الاسلام فان نوره جدير أن يخرق القلوب وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به . كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم الى الخير في جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية ، وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة ، وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس والفصل والخاصة ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأما تولى بذلك الارواح في معظم الامم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه ، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة -- فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهي الذي يغمر القوة البشرية ، ويستغرق الحول فتخشع له القلوب ، وتستخذي له النفوس ، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد

الركعات، أو رمي الجمرات، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير. وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير. أما الصوم فخرمان يعظم به أمر الله في النفس، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الاحسان الالهي في التفضل بها «٢: ١٨٣» كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (١) «أما أعمال الحج فتذكر للانسان بأوليات حاجاته وتعهده له بتمثيل المساواة بين أفرادِهِ ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير، والصعلوك والامير، ويظهر الجميع في معرض واحد مكشوفي الرؤوس، متجردين عن المحيط، وحدث بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والموقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذي سماهم المسلمين «٢» واستقرار يقينهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وهم مع هذا الاذعان الكريم في كل عمل مقرّون بتنزيه الله عن التشبيه

(١) راجع تفسيرها وقول المؤلف فيها في ص ١٥٧ ج ٢ من التفسير

(٢) ذكر المؤلف في الدرس . ان هذا قول لبعضهم وان

الختار عنده في تفسير « ملة أيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » أن الضمير راجع الى الله . وكتب على هامش نسخه في هذا

المكان « المسمي هو الله »

والتجسيم « ١ » . اين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتزيه والتوحيد
كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث
الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر ان
آيات الله الكبرى في صنع العالم انما يجري أمرها على السنن الالهية « ٢ »
التي قدرها الله في علمه الازلي لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية
غير انه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغي ان يحيا ذكره عند
روايتها ، فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم « ان الشمس والقمر
آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك
فاذكروا الله حتى ينجلي » وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري
على نظام واحد لا يقضي فيه الا العناية الازلية على السنن التي أقامته
عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان في النعم التي يتمتع بها الاشخاص
أو الامم ، والمصائب التي يرزؤن بها ، ففصل بين الامرين فصلا لا مجال

(١) كذا صحح العبارة في هامش نسخته . وفي جدول التصحيح
هكذا : « وهذا الاذعان الكريم في كل عمل من أعمال العبادات
الاسلامية مقرون بما يدل على التنزيه ، وتقديس الله عما يوهم التشبيه ، »
اي كالتكبير الذي هو عبارة الاصل (٢) راجع تفسير قوله تعالى
(٣ : ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن) وما قاله المؤلف في السنن
في الجزء السادس من المجلد الحادي عشر من المنار

معه للخلطينهما . فاما النعم التي يتمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعف والضعف والفقر ربما لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ، وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى ، وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده ، واثى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين اذا اصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم في التسليم بقولهم « ١٥٦:٢ إنا لله وإنا اليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالاسراف ، والذل بالجن ، وضياع السلطان بالظلم ، وارتباط الثروة بحسن التدبير في الغلب ، والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر

أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أردعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الالهواء وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول الى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغبة من اسبابها ، وحفظ الامانة ، واستشعار الاخوة ، والتعاون على البر ،

والتناصح في الخير والشر، وغير من أصول الفضائل - ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة «٣: ١٤٥» ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها «(١)» ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، ويتقصها بضعفه، حتى اذا فارقتها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة الى مقبره، واستبدل الله عزرة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين، فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون «١٦: ١٧» واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا «أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقي من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسلك الفكر والذكر والصبر والشكر» ١٣ : ١١ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم * «٣٣: ٦٢» سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقاؤه « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة فينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة، كان غيره يظن انه

تزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك بكائه ، وهو ولع باهوائه ، ماض في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال « ١٢٢:٩ » فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذوا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم فرض ذلك في قوله « ١٠٤:٣ » ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عر المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات وأولئك لهم عذاب عظيم ١٠٦ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم : اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ١٠٨ تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظالما للعالمين ١٠٩ ولله ما في السموات وما في الأرض والى الله ترجع الامور) ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرطين ، وتحقق به كلمة العذاب على المختلفين والمقتصرين ، أبرز حال الامارين بالمعروف والنهي عن المنكر في أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال « ١١٠ » كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (* فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان في هذه الآية مع ان الايمان هو

(*) راجع تفسير الآيات وما قاله المؤلف فيها في ص ٥٧١ - ٥٨٢

الاصل الذي تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريفاً لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض ، بل تنبيهاً على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال « ٧٨:٥ » لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على مقتته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء في أموال الاغنياء حقاً معلوماً يفيض به الغني على الفقير سداً للحاجة المعدم ، وتفرجاً لكره الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير ، وكثيراً ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحض صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين ، وأي دواء لأمراض الاجتماع أتبع من هذا ؟ « ٢١:٥٧ » ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

أغلق الاسلام بابي الشر وسد ينبوعي فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً لا هوادة فيه

لم يدع الاسلام بعدما قررنا أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا
أما من أمهات الصالحات الأحياء، ولا قاعدة من قواعد النظام المقرها،
فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال
العقل في النظر، وما به صلاح السجيا واستقامة الطبع، وما فيه إنهاض
العزائم الى العمل، وسوقها في سبل السعي، ومن يتلو القرآن حق تلاوته
يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد وذخيرة لا تنفد، هل بعد الرشد وصاية،
وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا قديين الرشد من الغي ولم يبق الا اتباع
الهدى والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين. لهذا
ختمت النبوات بنبو محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسائله
كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة
مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل
بعد لقبول دعوة يزعم القائل بها أنه يحدث عن الله بشرع، أو يصدع عن
وحيه بأمر، هكذا يصدق نبأ الغيب «٣٣: ٤٠» ما كان محمد أباً أحداً من
رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً

انتشار الاسلام

(بسرعة لم يعمد لها نظير في التاريخ)

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين

عامة كذلك، لكن يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها الى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقي حق من باطل: أوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله، وعذب المستجيون له وحرمو الرزق، وطردوا من الدار، وسفكت منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر، ثبت الله بمشهدا المستيقنين، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب مافسد من طباعهم فتجري من مناخرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين « ٣٧: ٨ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون »

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته، ويخفقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء، والفقير للاغنياء، ولا ناصر له الا أنه الحق بين الباطل، والرشد في ظلمات الاضاليل، حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة،

وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المسكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ، ولا أنا لهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه ، وبعث اليهم البعوث في حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلبا للأمن وابلغا للدعوة ، فاندفعوا في ضعفهم وفقيرهم يحملون الحق على أيديهم وانها لو ابه على تلك الامم في قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبا وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم ، وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على اديانهم واقامة شعائرهم آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزأ قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ، ويفشون مجالسهم ، ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون

لهم وظيفة ممتازة يأخذون على انفسهم العمل في نشره ، ويقفون مساعدهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتبون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد بمعاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً ، عندما كان يعدها الاروبيون ضعة وضعفا
رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوت ورد الاموال المسلوقة الى أربابها ، وانتزع الحقوق من معتصبيها ، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا اين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه اسلم بلا اكرام ولا رغبة في دنيا . وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صدعن سبيل الدين لا محالة ولذلك امر عمر بن عبد العزيز بتعزيز مثل أولئك العمال

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتي كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا
اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتي هجر اليهود وأوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها
هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم : لم يفعلوا

شيئا سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لآكرههم عليه شيأ من القوة، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه، فما الذي أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام واقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا في خدمته ما لم يبذل له العرب أنفسهم ؟

ظهور الاسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل (١٢٩:٢) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفه منهم سبيلا الى البقاء على العناد في مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين ، أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه، فوجدوا لطفاً ورحمة، وخيراً ونعمة، لا عقيدة ينفر منها العقل وهورائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق، رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلي ويلحقها بالملكوت الاعلى (١٠ رسالة التوحيد)

ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه ، متى حسنت النية وخلصت السريرة ، فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حسنت التوبة ، وكمات الاوبة - تبت لهم سذاجة الدين عند ما قرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامله اليهم وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه ، وما تكفي جولة نظر في الوصول الى علمه ،) * (قراموا اليه خفا من ثقل ما كانوا عليه كانت الامم تطلب عقلا في دين فوافاهما ، وتطلع الى عدل في ايمان فأتاهما ، فما الذي يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها ، والمبادرة الى رغبتها ؟ كانت الشعوب تن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤون الاديان ، متى عرضت دونها شهوات الاعلين ، فجاء دين يحدد الحقوق ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لا مير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير وما كان يريد لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزم على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها فيها مع لوم الامير على ما كان منه ، عدل يسمح ليهودي أن يخاصم

(*) الاول كالجمع بين الثلاث والتوحيد والثاني عالم الغيب غير المحال

لين المسلمين وتساهلهم وانتشار الاسلام في الصين وافريقيا ١٤٧

مثل علي بن أبي طالب امام القاضي وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضي الى أن قضى الحق بينهما، هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذي حببه الى من كانوا أعداءه، ورد اليه أهواءهم حتي صاروا أنصاره وأولياءه. غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجارفهم كانوا يتعاملونهم من سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفتة من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم و بغير علم لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد خصوصاً في الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الأخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها ولا داعي أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه، ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته، وبالجملة لان فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها، وأقرب الى قلوبها ومشاعرها، وأدعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً، والى العقول مخلصاً، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والايام الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب

الحبائل لاسقاط النفوس فيه - هذا كان حال الاسلام في سداخته الاولى وطهارته التي أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالآخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم ، ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواترا صحيحا لا يقبل الرية في جملته ، وان وقع اختلاف في تفصيله ، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم ، وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاؤروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل في الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتداء ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل

من قرن . هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤون تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة، وفصاحة تندفق عن الالسة، وأموال تخلق ألباب المستضعفين، ان في ذلك لايات للمستيقنين

جاءت حكمة الله في أمر هذا الدين: سلسيل حياة نبغ في القفار العربية، أبعد بلاد الله عن المدينة، فاض حتى شملها فجمع شملها فاحياها حياة شعبية مليّة، علامده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعها، وتعلو أهل الارض بمدنيّتها، زلزل هديره على لينة ما كان استحجر من الارواح فانشتت عن مكنون سر الحياة فيها. قالوا كان لا يخلو من غلب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغبي قائمة في هذا العالم الى ان يقضي الله قضاءه فيه، اذا ساق الله ربيعا الى أرض جذبة ليحيي ميتها، وينقع غلتها، وينمي الخصب فيها، أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها، او يدت رفيع العماد فهو به ؟

سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا ان يسمعوا كلام الله ويفقهوه واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار، وكاد يتزحزح الى ماوراءه، لكن الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين

جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث اعقابهم ان اتخذوا الاسلام ديناً وحملوه الى اقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم: جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق من ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا الى ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلالهم عنها، لم جاءوا وبماذا رجعوا؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب، بأثارة شعوبهم لبيدوا ما يشاؤون من سكان الشرق، أو يستولي سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية، جاء من الملوك والامراء وذوي الثروة وعلية الناس جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدره بالملايين، استقر المقام بكثير من هؤلاء في ارض المسلمين وكانت فترات تنظف في فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر في أحوال المجاورين، وتلتقط من أفكار الخاطئين، وتفعل بما ترى وما تسمع، فتبينت ان المبالغات التي أطاشت الاحلام، وجسمت الآلام، لم تصب مستقراً الحقيقة، ثم وجدت حرية في دين، وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال في يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي عليه ثم جمعت من

الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها، قرية العين بما غنمته من جلادها، هذا الى ما كسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا، وأخذت الافكار من ذلك العهد تراسل، والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين، والاخذ على ايديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياهم، وحرفوا في معناه، ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الإصلاح والرجوع بالدين الى سداجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا في صورة العبادة لا غير

ثم أخذت امم أوربا تقتك من أسرها، وتصلح من شؤونها، حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الاسلام، غافلة عن قائدتها، لاهية عن مرشدها، وتقررت اصول المدنية الحاضرة، التي تفاخر بها الاجيال المتأخرة ماسبقها من أهل الازمان الغابرة، هذا ظل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، جاء القوم ليبيدوا، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا، ظن الرؤساء ان في إهاجة شعوبهم شفاء ضعفهم، وتقوية ركنهم، فباؤا بوضوح شأنهم وضععة سلطانهم،

وما بيناه في شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من اهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

﴿ ايراد سهل الايراد ﴾

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه «١٥٩:٦» ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء، فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب، وفرقت بين طوائفها المذاهب؟ اذا كان الاسلام موحدًا فما بال المسلمين عددوا؟ اذا كان موليا وجه العبد وجهة الذي خلق السموات والارض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا، وكادوا يعدون ذلك فضلا من فصول التوحيد؟ اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر في الاكوان، واطلق له العنان يجول في ضمايرها بما يسعه الامكان، ولم يشترط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقدا الايمان، فما بالهم قنعوا باليسير، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم، ظنًا منه أنه قد رضي الله بالجهل، واغفل النظر فيما أبدع من محكم الصنع؟ — ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل، أصبحوا مثالا في القعود والكسل؟ — ما هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله ينهم يقيم ميزان القسط بين

ما ابتدعوه، وبين ما دعاهم اليه فتركوه؟ — اذا كان الاسلام في قر به من العقول والقلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأي القوم تقصرون الوصول اليه يد المتناول؟ اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه الاتعنيا، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الاتظنيا؟ — اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال، فما بالهم شدوها الى أغلال أي أغلال؟ — اذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكاهم يضرب بهم المثل في الظلم؟ — اذا كان الدين في تشوف الى حرية الارقاء، فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار؟ — اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ اليهود والصدق والوفاء، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء؟ — اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعده على الغش بان الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟ — اذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن، والنفس والبدن؟ — اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم، وان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ساط عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم، وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق، ولا يعتصمون بصبر، ولا يتناصحون في خير ولا شر، بل ترك كل صاحبه، وألقى جبهه على غاربه،

فعاثوا أفذاذا، وصاروا في أعمالهم أفراداً لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه، كأنه ليس منه، كأن لم يجمعه معه صلة، ولم تضمه اليه وشيجة؟ - ما بال الابناء، يقتلون الآباء، وما بال البنات، يعققن الامهات؟ أين وشائج الرحمة؟ أين عاطفة الرحم على القريب؟ أين الحق الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء، وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء؟ قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى في الشرق واهله في ظلمات لا يبصرون، أصبح هذا في عقل، أو عهد في نقل، ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئاً وهم من اهل هذا الدين اول ما يعلق باوهام أكثرهم ان عقائده خرافات، وقواعده واحكامه ترهات، ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سمو انفسهم احرار الافكار، وبعداء الانظار، والى الذين قصروا همهم على تصفح أوراق من كتبه، ووسموا انفسهم بانهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه، كيف يجافون علوم النظر ويهزؤن بها، ويرون العمل فيها عبثاً في الدين والدنيا، ويفتخر الكثير منهم بجعلها كأنه في ذلك قد هجر منكراً وترفع عن دينية؟ فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحي ان يظهر به بين الناس، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وانه مستميك بعقائده يرى العقل جنة، والعلم ظنة، أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس اجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين؟

﴿ الجواب ﴾

ربما لم يبلغ الواضف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ماجاء في الايراد قليلا من كثير وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد أتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه اولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم فذلك هو الاسلام وقد اسلفنا ان الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والاخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا، ولا الاصم اعراضا، وغاية ما قيل في الايراد ان أعطى الطبيب الى المريض دواء فصاح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في يده وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه او يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو في يأس من حياته ينتظر الموت او تبدل سنة الله في شفاء أمثاله. كلا منا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بينا أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم

فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر إن شاء الله

﴿ التصديق بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴾

بعد ان ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ماينا وانه إنما يخبر عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والايمان بما جاء به ونفني بما جاء به ماصرح به في الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه وهو ما اخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم في جنة وعذاب في نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف . ويجب ان يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني . وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الالهي عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم الله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة

أما أخبار الآحاد فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرض له شبهة في صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن في ايمانه عدم التصديق به . والا صل في جميع ذلك أن من أنكر شيئا وهو يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره

فند طعن في صدق الرسالة وكذبها ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر
وعلم أنه من الدين بالضرورة وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل
من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه
فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها
بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب
وعقاب على الاعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد
والوعيد ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة في التكليف كان مؤمناً
وان كان لا يصح اتخاذ قدوة في تأويله فان الشرائع الالهية تد نظر
فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشبهه عقول الخاصة . والاصل في
ذلك أن الايمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا
قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وما
هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه (الاولى) جواز رؤية
الله تعالى في الآخرة (والاخرى) جواز وقوع الكرامات وخوارق
العادات من غير الانبياء من الاولياء والصديقين

أما الاولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفق بين المنزهين
لا مجال معه للتنازع فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون
على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في
مجرى العادة بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها لا يكون الا

ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا وهو ما لا يمكن معرفته وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر. والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع الى قول خصومهم ولكن مني الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

أما الثانية فإنكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحاق الاسفرايني من أكابر أتباع أبي الحسن الاشعري رعى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصري فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الاشاعرة واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات وأولوا ما جاء في الآيات. أما ان ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها. وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لأن ما في قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤون الله في أنبياء ذلك العهد الا قليلا. وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل

ما الكلام فيه من عموم الجواز . فصار البحث في جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث في تناولهم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير وفي مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الالهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر أما مجرد الجواز العقلي وان صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تناوله القدرة الالهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء وانما الذي يجب الالتفات اليه هو ان أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم باجماع الامة ان ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان ولا يكون بانكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مائلاً عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم اللهم الا ان يكون مما صح في السنة عن الصحابة . اين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الايام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات، أصبحت من ضروب الصناعات، يتنافس فيها الاولياء، وتتفاخر فيها هم الاصفياء، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأوليائه وأهل العلم أجمعون

﴿ خاتمة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٥٥: ٢٤ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم

وليدلهم من بعد خوفهم أمانا يعبدوني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقد فسر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة « ١٣: ٧٢ » وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن برب فلا يخاف بخسا ولا رهقا ١٤ » وأنما المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا ورشدا ١٥ » وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ١٦ » وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ١٧ » لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ١٨ » وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ١٩ » وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ٢٠ » قل إنما أدعوربي ولا أشرك به أحدا ٢١ » قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ٢٢ » قل إني لن يحبرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ٢٣ » إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نارجهم خالدين فيها أبدا ٢٤ » حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ٢٥ » قل ان أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ٢٦ » عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ٢٧ » إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ٢٨ » يعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا » صدق الله العظيم ، وبلغ رساءه ~~الملك~~ سيطان

الرحيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، رحمن الرحيم

﴿ تمت الرسالة ﴾





COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU59576170

ME06608

Risalat al-tawhid.

RECAP